وثائق تاريخية جديدة

عن عصر المرابطين

تأليف

الدكتور محمود علي مكي

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م



٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة

رقم الإيداع	٢٠٠٣/٢١٢٢٦
الترقيم الدولي I.S.B.N	977-341-130-3

وثائقُ تاريخيّة جديدة

عَن عصرِ المرَابطينَ

لست أضيف جديدًا إذا قلت: إن تاريخ دولة المرابطين في المغرب والأندلس ما زال من أغمض فترات تاريخ الغرب الإسلامي على الرغم مما أحرزته النصوص والدراسات الأندلسية في السنوات الأخيرة من اهتمام كبير وتقدم لا بأس به.

والسبب في ذلك جليٌّ بيِّن، إذ لم يصلنا من الكتب التاريخية التي تناولت عهد المرابطين إلا شيء يسير نجده في ثنايا ما كتب عن تاريخ المغرب مثل ما ورد في (الحلل الموشية) لمؤلف مجهول و (المعجب) لعبد الواحد المراكشي و (روض القرطاس) لابن أبي زرع و (الاستقصا) للسلاوى و (العبر) لابن خلدون، وهى كتب تتحدث عن المرابطين في إيجاز شديد لا يكاد يشفي غلة، كما أن كثيرًا منها متأخر لا يكاد يمدنا بتفصيل واف عن أخبار هذه الدولة التي قدمت للإسلام في المغرب والأندلس أجلَّ الخدمات، وجاهدت في سبيله أعظم الجهاد.

ولا شك في أن نبأ العثور على الجزء الخاص بالمرابطين من كتاب (البيان المغرب) لابن عذارى سوف يسد جانبًا كبيرًا من هذا الفراغ، وقد كان من دواعي الغبطة أن نخبة من علماء المغرب يقومون الآن بإخراج هذا الكتاب إلى النور بالاشتراك مع المستشرق الإسباني الأستاذ أمبروسيو أويثى الذي تخصص في تاريخ المرابطين في المغرب والأندلس [1].

---

(١) أذكر بهذه المناسبة أنني تمكنت من الاطلاع على هذا الجزء المرابطي من (البيان المغرب) بعد أن مضيت شوطًا في هذا البحث، وكان الفضل في ذلك يرجع إلى تلطف الأستاذ أويثى الذي تكرم=

أما في الأبحاث الحديثة فلم تكن الدولة المرابطية أسعد حظًّا في الحكم الذي استحقته من أصحاب هذه الأبحاث، وقد سبق لأستاذنا الدكتور حسين مؤنس أن بين ما في كتابات معظم المؤرخين الأوربيين المحدثين من حملة ظالمة على المرابطين كان الدافع إليها إما التعصب الديني أو الكراهية التي كادت تكون (شخصية) كما نرى فيما كتبه عنهم الباحث الهولندي العظيم راينهارت دوزى [١].

ولما كانت المادة التاريخية المبعثرة في المراجع الأندلسية والمغربية ضئيلة نزرة فقد كان من المتعين على دارس هذه الفترة أن يجمع كلَّ الوثائق التي وردت في ثنايا كتب الأدب والتراجم المطبوعة والتي لا زالت مخطوطة بعد، إذ لا شك في قيمة هذه الوثائق في المساهمة بإعادة بناء التاريخ المرابطى بشكل يمكن من كتابته على نحو أقرب إلى الدقة وأبعد عن الاشتطاط.

وقد قام الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بتوجيه نظر الباحثين إلى قيمة مجموعتين من الوثائق المرابطية عثر عليهما في بعض مخطوطات مكتبة الأسكوريال، وقام هو نفسه بنشر سلسة منها يتبين لقارئها مدى ما تشتمل عليه من أخبار تلقي كثيرًا من الضوء على هذه الفترة [٢].

= على المعهد بتقديم نسخته التي كتبها بخطه من هذا الكتاب إلى الأستاذ الدكتور حسين مؤنس مدير المعهد، فللأستاذين الكريمين خالص الشكر على ذلك.

(١) الدكتور حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثاني (سنة ١٩٥٤)، ص ٥٧-٥٨.

(٢) نشر الدكتور حسين مؤنس المجموعة الأولى من هذه الوثائق تحت عنوان (الثغر الأعلى الأندلسي عصر المرابطين مع أربع وثائق جديدة) في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، المجلد الحادي عشر، الجزء الثاني، ديسمبر ١٩٤٩، ص٩١-١٤٣؛ والمجموعة الثانية في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثاني ١٩٥٤ تحت العنوان الذي أوردناه في الحاشية السابقة، ص٥٥ - ٨٤؛ والمجموعة الثالثة في المجلد الثالث من هذه الصحيفة، سنة ١٩٥٥، ص٩٧ - ١٤٠ تحت عنوان (نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين).

وهكذا بدأت بعض نواحي التاريخ المرابطي تتضح، وإن ظل الكثير منها ما زال يكتنفه الغموض، هذا على الرغم من المحاولات التي اضطلع بها بعض الباحثين المحدثين من أجل كتابة (تاريخ) شامل لدولة المرابطين [١]، وهي محاولات نراها - رغم قيمتها والجهد المبذول فيها - سابقة لأوانها، إذ أنه ينبغي أولا العمل على جمع كل النصوص المتعلقة بالمرابطين في الكتب المطبوعة والمخطوطة، مما لا غنى للمؤرخ الحديث عن الاطلاع عليه والانتفاع منه إذا أريد كتابة تاريخ علمي أقرب ما يكون إلى الكمال لهذه الدولة.

وقد كان من بين النوادر المخطوطة التي قُدِّر لمعهد الدراسات الإسلامية في مدريد أخيرًا أن يحصل عليها من تركة المستشرق الفرنسي الأستاذ ليفي بروفنسال بعد وفاته في سنة ١٩٥٦ - كتاب مخطوط فيه مجموعة من الرسائل السياسية والأدبية القيمة مما كتب عن سلاطين المغرب والأندلس في عصري المرابطين والموحدين خلا عدد قليل لا يتجاوز أربع رسائل مما حرره كُتَّاب مشارقة.

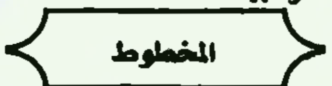
وكان الأستاذ جورج كولان قد حصل على هذه النسخة المخطوطة في فاس في نحو سنة ١٩٢٦، وأعارها الأستاذ ليفي بروفنسال، فاستخرج هذا منها الرسائل المتعلقة بتاريخ الموحدين ونشر نصها العربي في الرباط في سنة ١٩٤١ بعد أن أضاف إليها نص رسالة موحدية استخرجها من كتاب (صبح الأعشى)

(١) نذكر من هذه المحاولات في المكتبة العربية الحديثة كتاب الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود عن (قيام دولة المرابطين)، القاهرة سنة ١٩٥٧، وهو بحث لا يتناول التاريخ المرابطي كله بل هو كما يدل عليه عنوانه خاص بالفترة الأولى من تاريخهم، ومن الكتب الأوربية البحث الذي وضعه المستشرق الإسباني الشاب بوسك بيلا تحت عنوان (المرابطون)، نشر معهد الجنرال فرانكو للدراسات والأبحاث الأندلسية، ط. تطوان سنة ١٩٥٦:
Jacinto Bosch Vila, Los Almoraoides, ed. Instituto General Franco de Estudios e Investigacion Hispano-Arbe; Tetuan, 1956..

للقلقشندي [١]؛ ثم أتبع المستشرق الفرنسي هذه الطبعة بترجمة فرنسية لتلك الرسائل السبع والثلاثين مع دراسة سياسية تاريخية نشرت في مجلة (إسبريس) [٢].

وقد بقيت من المخطوطة بعد ذلك الرسائل المشرقية الأربع التي أشرنا إليها، ومنها اثنتان للكاتب أبي إسحاق إبراهيم الصابي وزير الدولة البويهية، والأخريان للكاتب عبد الرحيم بن على البيساني المعروف بالقاضي الفاضل في فتح بيت المقدس؛ ثم اثنتان وعشرون رسالة كلها من عصر المرابطين فيما عدا رسالة واحدة لأبي حفص بن برد المعروف بابن برد الأصغر، وهو من كُتَّاب عصر ملوك الطوائف.

وقد رأيت أن أستخرج الوثائق المرابطية التي تركها ليفي بروفنسال من هذا المجموع فأنشرها هنا، وهى كما ذكرت إحدى وعشرون رسالة، وقد ألحقت بها كذلك رسالة ابن برد المنوّه بها.



المخطوط

أما النسخة المخطوطة التي اسْتُخْرِجَتْ منها تلك الرسائل سواء منها الموحدية التي نشرها ليفى بروفنسال أو المرابطية التي هي موضوع هذا البحث فإنها مبتورة الأول والآخر مما يتعذر معه معرفة اسم الناسخ وتاريخ النسخ، وهى تقع في ١١٨ ورقة حُفظت كلها في حالة جيدة، وأما الخط فمغربي متوسط الجودة، وتبلغ مساحة الورقة نحو ٢٠ط١٨ سنتيمترًا، ومسطرتها تتراوح بين ٢٨ و ٢١ سطرًا في الصفحة، ومتوسط عدد الكلمات نحو إحدى عشرة أو اثنتي

(١) نشر هذا النص تحت عنوان (مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية)، الجزء العاشر من مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط سنة ١٩٤١.

(٢) E. Levi-rovencal: Un recueil Lettres offcielles almobades. Etude diplomatique et istorique. Hespèris, XXVIII1941, pp.1-80.

عشرة كلمة، وقد كُتبت عناوين الرسائل في كثير من المواضع بمداد أحمر [(١)].

وتقع مجموعة الرسائل التي أنشرها هنا بين وجه الورقة رقم ٧٦ وظهر الورقة ٨٧ من الأصل المخطوط.

كتاب الرسائل

عدد الرسائل كما ذكرنا اثنتان وعشرون ليست فيها إلا واحدة لم ينص على كاتبها، أما الباقية فمنها واحدة لأبي حفص ابن برد، وسائرها مما كتبه كُتَّاب مرابطيون بين سنتي ٤٩٩ و٥٢٣هـ. (١١٠٦-١١٢٩م).

أما ابن برد فهو الكاتب الوحيد الذي لا نستطيع أن نعده من كُتَّاب المرابطين، إذ أنه لم يدرك أيامهم، وهو أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن برد، ويلقَّب بالأصغر تمييزًا له عن جده كاتب الدولة العامرية أحمد بن برد الأكبر [(٢)]. وأسرة بني برد تنتمي بالولاء إلى بني شهيد وزراء الخلافة الأموية والدولة العامرية بالأندلس، أما أبو حفص هذا فقد تربى في كنف جده ابن برد

---

(١) أوردت هذا الوصف للمخطوط إذ أن الأستاذ ليفي بروفنسال لم يتحدث عن ذلك في مقدمة نشرته للنص العربي لمجموعة الرسائل الموحدية ولا في ترجمته الفرنسية لها، وكان قد اعتذر عن ذلك في تقديمه لتلك الترجمة بأن المخطوط لم يكن بين يديه في وقت كتابته لها. انظر:
Un recueil de lettres officielles... p.3, n.6.

(٢) في ترجمة ابن برد الأصغر انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ترجمة ١٩٢ ابن بسام: الذخيرة ق١-٢/١٨-٥٢؛ الضبي: بغية الملتمس، ترجمة ٣٥٤ ؛ الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس ص٢٧-٢٨؛ ابن سعيد: المغرب ١/٨٦-٩١؛ ابن سعيد: رايات المبرزين ص ٤٠-٤١؛ المقري: نفح الطيب ٥/٨٧-٨٨ ؛ ياقوت: معجم الأدباء ٥/٤١-٤٣؛ وانظر كذلك ما كتبه نيكل في (الشعر الأندلسي)، ص١٢١ ؛ والبحث الذي أعده الأستاذ فرناندو دي لا جرانخا تحت عنوان (رسالتان لأبي حفص بن برد الأصغر)، وهو دراسة ستظهر في المجلد الخامس والعشرين من مجلد (الأندلس):
Fernando de Granja. Dos epistolas de Abu Hafs Ibn Burd al-Asgar, Al-Andalus, XXV (1960), fasc. II, p. 383 ss.

الذي كان رئيس ديوان الإنشاء في دولة عبد الملك المظفَّر بن المنصور بن أبي عامر، والذي كتب بعد ذلك لبعض خلفاء عصر الفتنة وتُوفِّي بسرقسطة في سنة ٤١٨(١٠٢٧)[١]، كذلك درس على أبيه محمد بن أحمد بن برد الذي نقل ابن الأبار أنه كان من ذوي الأدب والنباهة وإن لم يبلغ في ذلك شهرة أبيه ولا ابنه[٢]. وقد انتقل ابن برد الأصغر بعد الفتنة القرطبية إلى إشبيلية، إذ أننا نراه في بلاط القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد، وكان هو الذي كتب لابن عباد عقد البيعة التي أعلنها لهشام بن الحكم الذي زعم ظهوره في إشبيلية ودعا الناس إلى الدخول في طاعته في سنة ٤٢٧ (١٠٣٥)[٣]. ولعل ابن برد تقلبت به الحال بين بعض ملوك الطوائف الآخرين حتى نراه أخيرًا في المرية لدى ملكها أبي الأحوص معن بن محمد بن صمادح التجيبي الذي ولي أمر هذه المملكة في سنة ٤٣٣ (١٠٤١)، ولهذا الملك ألف ابن برد كتابه (سر الأدب وسبك الذهب) على ما يذكر ابن بسام. ويظهر أن ابن برد انتقل إلى المرية مع أبيه وسائر أفراد أسرته واستقر بها ولم يدعها إلى غيرها[٤]، على أن عمره لم يطل إذ أنه توفي بالمرية في حياة أبيه سنة ٤٤٥ (١٠٥٣) على ما يذكر ابن الأبار[٥].

أما الرسائل العشرون الباقية فكلها مما تولى تحريره كُتَّاب أندلسيون نبغوا في دول ملوك الطوائف ثم عملوا بعد ذلك في خدمة الدولة المرابطية بعد أن ضمَّ يوسف بن تاشفين الشطر الأكبر من الأندلس إلى الإمبراطورية المغربية.

---

(١) انظر في ترجمة ابن برد الأكبر: ابن بسام: الذخيرة ق١-١/٨٤-١١٠؛ ابن بشكوال: الصلة، ترجمة ٧٢؛ الضبي: بغية الملتمس، ترجمة ٣٨٧.

(٢) التكملة، ترجمة ٤٣٥.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب ٣/١٩٠.

(٤) يذكر الحميدي في ترجمته (رقم ١٩٢) أنه - أي الحميدي - شاهده بعد سنة ٤٤٠ غير مرة زائرًا لأبي محمد بن حزم.

(٥) التكملة، ترجمة ٤٣٥؛ وابن الأبار هو المؤرخ الوحيد الذي أورد هذا التاريخ نقلا عن ابن حيان فيما يظهر.

وأول هؤلاء الكُتَّاب ابن القصيرة الذي له في هذا المجموع أكبر عدد من الرسائل إذ أنه يبلغ تسعًا. وهو أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي المعروف بابن القصيرة [1]، نشأ في دولة المعتضد بن عباد ملك إشبيلية، وكان على ما يذكر ابن بسام ممتنعًا من خدمة السلطان قاعدًا بنفسه عن مرتبة نظرائه حتى فطن له ذو الوزارتين ابن زيدون، فنبه عليه المعتضد في آخر دولته، فتصرف فيها قليلا حتى أفضى الأمر إلى المعتمد بن عباد، فرفع من مكانته وولاه وزارته، وكثيرًا ما عوَّل عليه في السفارات التي كان يبعث بها إلى جيرانه وحلفائه من ملوك الطوائف، ولما استولى النصارى على طليطلة واشتد نكيرهم على ملوك الأندلس كان ابن القصيرة هو الذي قام بعبء السفارات التي رددها المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين، وهكذا ارتفعت منزلة ابن القصيرة لدى المعتمد حتى (استولى على الدولة استيلاء قصُر عنه أشكاله) على حد قول ابن بسام، كما كان لابن القصيرة دور له خطره في الأحداث التي أحاطت بمعركة الزلاقة وفي أثنائها في سنة ٤٧٩ (١٠٨٦) [2]

ولما قام يوسف بن تاشفين بخلع المعتمد وغيره من ملوك الطوائف أصابت ابن القصيرة نكبة أقصته عن رتبته وأخملته مدة ثلاث سنوات حتى تذكَّره يوسف بن تاشفين بسبب كتاب ورد إليه من مصر فأولاه الجواب عليه فاستدعاه لساعته، وقرَّبه من ذلك الوقت [3]، ويقول ابن الخطيب إن تقديم ابن تاشفين لابن

---

(١) في ترجمة ابن القصيرة انظر: ابن بشكوال، ترجمة ١١٣٧؛ الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ص ١٠٤-١٠٦؛ ابن سعيد: المغرب ٣٥٠/١-٣٥١ ؛ ابن بسام: الذخيرة (مخطوطة بغداد) ق٢، ص١٥١-١٨٥ ؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب ص١٦٤ ؛ ابن الخطيب: الإحاطة (مخطوطة الأسكوريال رقم ١٧٦٣) ص٦٤-٦٥؛ وانظر كذلك:
R. Dozy, Historia Abbadarum, I, p. 81, n. 47.

(٢) ابن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار ص٩١؛ السلاوي: الاستقصا ٣٧/٢، ٤٢؛ الحلل الموشية ص٤٧-٤٨ ؛ ابن الأثير: الكامل ١٤٢/٨.

(٣) ابن بسام: الذخيرة ق٢ ص١٥٢.

القصيرة للكتابة عنه كان بعد وفاة كاتبه عبد الرحمن بن أسباط فجأة في سبتة سنة ٤٨٧ (١٠٩٤)[١]، ومنذ هذا التاريخ بقي ابن القصيرة يتولى منصب الكتابة ليوسف بن تاشفين حتى وفاة الأمير في سنة ٥٠٠ (١١٠٧)، ثم لابنه عليّ بن يوسف طوال السنوات الأولى من حكمه. وكانت وفاة ابن القصيرة بمراكش في سنة ٥٠٨ (١١١٤-١١١٥) عن سن عالية وبعد أن أصابه خرف عطّله قبيل وفاته.

وكان لابن القصيرة مكان عظيم في الشعر والنثر بدولة المرابطين، أخذ عن الأعلم الشنتمري وابن شريح الإشبيلي، ونقل ابن بسام وابن خاقان جملة كبيرة من آثاره الأدبية، ولعل من أهم الرسائل التي احتفظت لنا بها المراجع من نتاج قلمه رسالته عن المعتمد بن عباد حول هزيمة أذفونش (ألفونسو السادس) في موقعة الزلاقة، وهذه الرسالة كانت من بين ما نقله له ابن بسام في ذخيرته، كذلك أورد الفتح بن خاقان له عدة رسائل إخوانية وسلطانية لها فائدتها التاريخية العظيمة إلى جانب قيمتها الأدبية.

ولدينا في هذه المجموعة التي ننشرها هنا خمس رسائل بقلم كاتب مرابطي آخر هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهري[٢]، وكان من أسرة بني الجد من أعيان لبلة وإشبيلية، وقد برز من هذه العائلة كُتّاب ووزراء مشهورون، وقد بدأ ابن الجد حياته مشتغلاً بالحديث والفقه والأدب والأنساب حتى تبحّر فيها، ثم قلّده يزيد الراضي بن المعتمد بن عباد وزارته، وظل مقربًا في دولة العباديين حتى خلعهم يوسف بن تاشفين، فبقي مدة معتزلاً لمناصب الحكم،

---

(١) الإحاطة ص٢٥٦ في ترجمة عبد الرحمن بن أسباط، وابن الخطيب يعتمد في هذا الموضع على أبي بكر الصيرفي مؤرخ الدولة المرابطية.

(٢) في ترجمة ابن الجد انظر: ابن بشكوال: الصلة، ترجمة ١١٤٩ ؛ ابن خاقان: القلائد ص١٠٩-١١٥؛ ابن سعيد: المغرب ١/٣٤١-٣٤٢ ؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب ص١٧٣ ؛ ابن دحية: المطرب ص ١٩٠-١٩٢؛ ابن بسام: الذخيرة (مخطوطة بغداد) ق ٢ ص١٨٥-٢١٣.

وقدّمه أهل بلده لبلة فولّوه خطّة الشورى بعد امتناع منه وكراهية، ثم استدعاه عليّ بن يوسف بن تاشفين لتولّي الكتابة في ديوان رسائله، فأجاب إلى ذلك، ويبدو أنه بقي في هذا المنصب حتى وفاته في سنة ٥١٥ (١١٢١).

وقد نقل ابن خاقان من رسائل ابن الجد عن عليّ بن يوسف جملة تلقي كثيرًا من الضوء على تاريخ الأندلس في عهد المرابطين نذكر منها رسالته في تولية أبي زكريا يحيى بن أبي بكر المعروف بابن الصحراوية على سبتة وفاس ورسالته إلى القائد أبي محمد عبد الله بن فاطمة عامله على إشبيلية، وأخرى عنه إلى أهل غرناطة ينعى فيها عليهم اختلافهم وتنازعهم ومطالباتهم لعامله على المدينة ويأمرهم بالانقياد له والطاعة [١]، وهاتان الرسالتان الأخيرتان هما اللتان نجدهما في مجموعة الرسائل التي ننشرها هنا مع اختلافات سنشير إليها في موضعها.

ومن كُتّاب هذه الرسائل أيضًا الوزير أبو بكر بن القَبْطُرْنُهْ [٢]، وهو عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز البطليوسي، وكان من بيت نباهة وشهرة في الأدب على الرغم من انحدار أسرته - على ما يبدو من لفظ (القبطرنه)- من أصل مسيحي إسباني قديم [٣]. وقد كان له أخوان أبو محمد طلحة وأبو الحسن محمد كانا كذلك من جلة الوزراء والكُتّاب في بلاط المتوكل بن الأفطس

(١) القلائد ص ١١٣-١١٤.

(٢) انظر في ترجمته: ابن الأبار: التكملة، ترجمة ١٧٤٣، ابن خاقان: القلائد ص١٤٨- ١٥٥ ؛ ابن سعيد: المغرب ٣٦٧/١ -٣٦٨، ٨٨/٢، ٢٤٩-٢٥٠؛ ابن دحية: المطرب ص١٨٦-١٨٧ ؛ ابن بسام: الذخيرة ق٢ ص٤٦٨-٤٨٠ ؛ المقري: نفح الطيب ٢٥٠/٤، ٤٨/٦ ؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ط. الأستاذ محمد عبد الله عنان) ٥٢٨/١-٥٣١.

(٣) قبطرنه كلمة من أصل لاتيني دارج مركبة من كلمتي caput أي رأس (وفي بعض اللهجات الإسبانية القديمة cap)، وطرنه Torno أي دائرة أو مستديرة ؛ فمعنى الكلمة إذن (ذو الرأس الدائرة). انظر في اشتقاق هذه الكلمة:
R. Dozy، Supplement... II, p.302; Simonet، Glosa rio..., p.97.

ببطليوس، إلا أن أبا بكر كان على ما يذكر ابن بسام (علم بردهم وواسطة عقدهم)، ولما خلع المرابطون بني الأفطس كتب ابن القبطرنه لهم حتى توفي بعد سنة ٥٢٠ (١١٢٦).

ومنهم أبو نصر الفتح بن خاقان [١]، وهو الكاتب المشهور صاحب كتابي (مطمح الأنفس) و (قلائد العقيان)، ويقول ابن الخطيب عنه إنه لم يدع ملكًا من ملوك الطوائف إلا استرفده، فلما جاءت دولة المرابطين اتصل ببعض أمرائهم، وكان من بين هؤلاء أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أخو الأمير علي بن يوسف وباسمه طرز الفتح كتاب (القلائد) وكانت وفاته بفندق في مدينة مراكش وُجد فيه قتيلاً سنة ٥٢٩ (١١٣٤).

وآخر هؤلاء الكُتّاب وفاة هو أبو عبد الله بن أبي الخصال واسمه محمد بن مسعود الغافقي الشقوري [٢]، وكان هو وأخوه أبو مروان عبد الملك من أعظم كُتّاب الدولة المرابطية، ويقول ابن خاقان: إنه كان خامل النشأة إلا أنه تميز بعد ذلك منذ اتصاله بأبي يحيى محمد بن الحاج أحد رجالات الدولة، وما زال شأنه يرتفع حتى أصبح أنبه كُتّاب علي بن يوسف وأعظمهم مكانة لديه، حتى وقع منه

---

(١) في ترجمته انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ١٩٤/٣ ؛ ابن الأبار: معجم أبي علي الصدفي، ترجمة ٢٧٥ ؛ ياقوت: معجم الأدباء ١٨٦/١٦-١٩٢ ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٤/ ١٠٧ ؛ كذلك

Dozy, Historia Abbadidarum, I, pp. 2-3; pons Boigues, Ensayo.. ,pp. 201-204; Brockelmann, Gecbicbte.., Suppl., I, p.579

وتاريخ الفكر الأندلسي لجونثالث بالنثيا (ترجمة الدكتور حسين مؤنس) ص ٢٩٦ -٢٩٩.

(٢) انظر في ترجمته: ابن بشكوال: الصلة، ترجمة ١١٧٨ ؛ ابن خاقان: القلائد ص ١٧٥ - ١٨١؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب ص ١٦٨، ١٧٠، ١٧٣ - ١٧٦ ؛ ابن دحية: المطرب ص ١٨٧ -١٨٩ ؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس (ط. فاس الحجرية) ص ١٤٨ -١٤٩ ؛ ابن بسام: الذخيرة ق٣ (مخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمدريد) ورقة ١٣٤- ١٣٨ ؛ الضبي: بغية، ترجمة ٢٨٢ ؛ ابن خير: الفهرسة ص ٢٢١ وما بعدها، وكذلك:

Brockelmann, op. Cit., I,p. 454-455 Suppl. I, p.639. Pons Boigues, op. Cit, p. 305-306.

ومن أخيه أبي مروان ما أدى إلى غضب علي بن يوسف عليهما وإقصائه لهما، إذ أن أمير المسلمين أمرهما - على ما يذكر عبد الواحد المراكشي - أن يكتبا عنه إلى جند بلنسية حين تخاذلوا حتى أوقع بهم ابن رذمير هزيمة قبيحة، فكتب أبو عبد الله أو أخوه أبو مروان في ذلك رسالة أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول مما تسبب في موجدة أمير المسلمين [١]، وحينما رأى أبو عبد الله ذلك استعفى علي بن يوسف فأعفاه ورجع إلى داره بعد وفاة أخيه أبي مروان بمراكش سنة ٥٣٩ (١١٤٥)، وبقي ملتزمًا داره بقرطبة حتى مات في السنة التالية سنة ٥٤٠ (١١٤٦).

وكان ابن أبي الخصال من أبرز أعلام النثر الأندلسي، وقد نص من ترجموا له على مدى المكانة التي بلغها في هذا الميدان، فعبد الواحد المراكشي يقول: إنه كان (له ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء الأندلس قد جعلوه مثالاً يحتذونه)[٢]، وقد بقي من إنتاجه الأدبي قدر لا بأس به لا يزال أكثره مخطوطًا [٣].

الرسائل

وأول ما نلاحظه على هذه المجموعة من الرسائل المرابطية هو أنها كلها تقريبًا صادرة عن ديوان الإنشاء الرسمي في عهد السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين الذي حكم المغرب والأندلس بين سنتي ٥٠٠ و ٥٣٧

---

(١) نشر الدكتور حسين مؤنس نص هذه الرسالة في الحلقة الثالثة من مجموعة الرسائل المرابطية التي نشرها في صحيفة المعهد (المجلد الثالث سنة ١٩٥٥) ص ١١٦ -١١٨؛ على أن الدكتور مؤنس بيّن أن الرسالة التي نسبها عبد الواحد المراكشي إلى أبي مروان بن أبي الخصال والتي كانت السبب في اعتزاله منصب الكتابة إنما هي لأخيه أبي عبد الله نفسه.

(٢) المعجب ص ١٧٥.

(٣) بروكلمان: تاريخ الآداب العربية ٤٥٤/١.

(١١٠٦ -١١٤٣)، ولهذا فإن لها قيمة عظيمة من الناحيتين الأدبية والتاريخية، هذا فضلاً عما تطلعنا عليه من بيان المراسم التي كانت تجري عليها كتابة الإنشاء السلطاني في هذا العصر، مما يمكننا معه تتبع تطور هذه الكتابة في المغرب والأندلس والمقارنة بين تلك المراسم وما كان يجري عليه العمل في المشرق. وفيما نشر من قبل من الرسائل المرابطية والموحدية وما احتفظ لنا به القلقشندي في (صبح الأعشى) من وصف مكاتبات ملوك المغرب في تلك الفترة [١]، وما لم يزل بعد مخطوطًا من تلك الرسائل - مادة طيبة تمكن من القيام بدراسة شاملة لهذا الموضوع [٢].

ولسنا نريد أن نلقي في هذا المقام حكمًا عامًّا على الكتابة في عهد المرابطين على أساس هذه الرسائل التي نقدمها هنا، إذ أنها لا تمثل إلا جانبًا من الكتابة السلطانية، فمعظمها كما ذكرنا صادر عن علي بن يوسف بن تاشفين إلى بعض عماله أو قضاته أو أمثالهم من كبار رجال الدولة.

وتبدأ هذه الرسائل دائمًا بقول (كتابنا. . .) ثم دعاء قصير بصيغة المخاطب إلى الشخص الذي تُوجَّه إليه الرسالة، يلي ذلك ذكر البلد الذي أُصدرت منه وتاريخ تحريرها، هذا وقد احتفظ لنا جامع الرسائل في بعضها بذكر التاريخ والمكان وأهمل ذكرهما في بعضها الآخر، ويلي ذلك موضوع الرسالة منتهيًا بتحية قصيرة.

أما أسلوب الرسالة فهو في الغالب موجز مركز ليس فيه الإسهاب الذي نراه في رسائل الموحدين، وهو مسجوع قصير الفقرات إلا أنه يأخذ من المحسنات اللفظية بقدر فهو بعيد عن التعقيد والتكلف الشديد الذي نلاحظه في الرسائل

---

(١) صبح الأعشى ٦/٤٤٣ وما بعدها، ٨/٧٨-٧٩.

(٢) انظر كذلك ما كتبه ليفي بورفنسال عن مراسم الكتابة في عصر الموحدين في مقدمة ترجمته للرسائل الموحدية السبع والثلاثين:

E. Levi-Provencal, Un recueil.., p. 10-19.

التي كانت تُكتب عن سلاطين دول المشرق في ذلك الوقت أو التي كُتبت عن السلاطين المغاربة في العصور التالية، ونستثني من ذلك بعض الرسائل التي كتبها الفتح بن خاقان وابن القبطرنه فهما أديبان يغلب عليهما التكلف والتعقيد وتقليد النثر المشرقي والبعد عن الأصالة.

ولعل خير هؤلاء الكُتَّاب هو ابن القصيرة الذي لم يبعد المراكشي عن الصواب إذ وصفه فقال إنه (كان على طريقة قدماء الكُتَّاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها متأخرو الكُتَّاب اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفوًا من غير استدعاء)[1].

وفي ذلك مظهر لبساطة الدولة المرابطية بالنسبة للموحدية وما تلاها من الدول المغربية والأندلسية التي نجد فيها كثيرًا من التكلف في الأسلوب وإسهابًا في ذكر ألقاب السلطان الموجَّه للرسالة أو المتلقي لها.

هذا ونلاحظ كذلك أن جميع هؤلاء الكُتَّاب أندلسيون، وأنَّ أكثرهم كانوا من بين الذين برزوا في ظل ملوك الطوائف ممَّن قَدَّر للأدب في عهدهم نهضة كبيرة، فابن القصيرة وابن الجد كانا ممن خدموا بنى عباد في إشبيلية، وابن القبطرنه اشتهر في بلاط بني الأفطس ملوك بطليوس، والفتح بن خاقان كان يتردد بين جميع ملوك الطوائف، وليس بين هؤلاء كاتب مرابطي النشأة إلا ابن أبي الخصال وإن كان قد تتلمذ على أعلام الجيل السابق الذي اكتمل في ظل ملوك الطوائف.

وقد كانت استعانة المرابطين بهؤلاء الكُتَّاب من أجلى مظاهر توثق الصلات بين الأندلس والمغرب والتقريب بين ثقافتي البلدين، ونحن نعلم أن هذه الصلات لم تنقطع قط منذ أصبحت إسبانيا جزءًا من العالم الإسلامي، إلا أن جواز المرابطين إلى الأندلس وحكمهم إياها كان معناه الوحدة الكاملة بين هذه

---

(١) المعجب ص ١٦٤.

البلاد والمغرب الإسلامي لأول مرة، وهي وحدة استفاد منها الجانبان، فقد ضمنت للإسلام بعض الاستقرار والقوة في الأندلس بعد أن كاد تخاذُل ملوك الطوائف وتفرُّقهم يقضي على الدولة الإسلامية في تلك البلاد، وأما المغرب فقد عرف كيف ينتفع من الحضارة الأندلسية ومقوماتها ويصطنعها في سرعة تدل على تحامل من زعم أن المرابطين كانوا شعبًا خشنًا بدويًّا محاربًا لم يأخذ بنصيب من رقة الحضارة وتهذيبها [١].

وهذا التحامل على المرابطين ليس أمرًا جديدًا بين المؤرخين الأوربيين المحدثين الذين رسموا لعهد المرابطين صورة قاتمة مصورين رجالهم جفاة غلاظًا لا يكادون يتذوقون الأدب العربي ولا يفهمونه، ولا يقدرون العلماء والأدباء حقَّ قدرهم كما نجد فيما كتبه دوزي ومنْ تابعه عن الدولة المرابطية[٢]، فهو أمر نجد بوادره لدي هؤلاء الأدباء الأندلسيين الذين كان شعورهم بقوميتهم الأندلسية يدفعهم إلى النظر إلى هؤلاء اللمتونيين نظرتهم إلى أجنبي فاتح متناسين العاطفة الدينية التي كانت توجب عليهم أن يعترفوا للمرابطين بفضلهم الأكبر: وهو إنقاذهم للإسلام الأندلسي بعد أن ضاق الخناق عليه منذ أوائل القرن الخامس الهجري، على أنه لم يكن من الغريب أن يتحامل على المرابطين أمثال هؤلاء الأدباء ممن كانوا يجدون في حياة الترف المنحل التي كان ملوك الطوائف غارقين فيها مرتعًا خصبًا ومعينًا يروون منه أطماعهم

---

(١) انظر الملاحظات التي سجلها في ذلك الأستاذ ليفي بروفنسال في مقاله (آراء حول الدولة المرابطية في أوائل القرن الثاني عشر)

Levi-Provencal. Reflexions sur l'Empire Almoraoide au debut du XII siecle (Cinquantenaire de la Faculte des Lettres d' Alger, (1881-1931), Alger, 1932; p.314sqq.

(٢) أورد الأستاذ غرسية غومز موجزًا وافيًا لآراء المؤرخين الأوربيين المحدثين في الثقافة الأندلسية في ظل المرابطين في بحثه عن (اضمحلال الشعر في إشبيلية في عصر المرابطين):

E. Garcia Gomez. Un eclipse de la poesia en Seoilla. La epoca almoraoide, pp. 22-26 .

وشهواتهم، وقد كان من مظاهر ذلك ما كتبه الشقندي في رسالته عن يوسف بن تاشفين الذي (لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس في مدحه ما أجروا له ذكرًا، ولا رفعوا لملكه قدرا) [١]، وهو كلام إن دلّنا على شيء فإنما يدل على غرور أمثال هؤلاء الأدباء كأن الحكم على أقدار الممالك والدول منوط بهم وحدهم يرفعون ويخفضون، ويعزون ويذلون [٢].

والواقع أن عناية المرابطين بالثقافة والأدب نثره وشعره لم تكن دون عناية ملوك الطوائف بهما، وقد أقبل المرابطون أمراؤهم وعمالهم على الثقافة الأندلسية ينهلون من مواردها في تواضع المستفيدين لا في كبرياء الملوك الحاكمين، وكان من أجلى مظاهر ذلك ما أشرنا إليه من تسامحهم في الاستعانة بمعظم أولئك الكُتّاب والشعراء الذين خدموا ملوك الطوائف حتى الذين استمروا على ولائهم وإخلاصهم لدولهم الزائلة. وهذه الرسائل التي ننشرها هنا تدل على مدى استعانة المرابطين بأولئك الكُتّاب الأندلسيين على الرغم من أنهم لم يكونوا كلهم أهلاً لثقتهم.

ولهذه الرسائل كما سبق أن بيّنّا قيمة تاريخية كبيرة، وسوف نتحدث لذلك عنها واحدة واحدة في الصفحات التالية.

* * *

(١) المقري: نفح الطيب ١٨١/٤، هذا ونلاحظ أن هذه الأحكام كانت كثيرًا ما تُكتب بدافع الملق، فالشقندي كتب رسالته متزلفًا إلى الموحدين، وكأن تزلفه لم يكن ليتم إلا بالتهجم على المرابطين والافتراء عليهم.

(٢) للمؤرخ المغربي السلاوي صفحة رائعة سجّل فيها ما أخذه البعض على حكم المرابطين وردٌ فيها على تلك التهم في عدل وأمانة جديرين بالإعجاب. انظر الاستقصا ٥١/٢ - ٥٢.

الرسالة الأولى

كتب هذه الرسالة أبو عبد الله بن أبي الخصال عن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، ولم يعين جامع الرسائل مكان إصدارها ولا تاريخه.

غير أن ما ورد في هذه الرسالة يمكن أن يدلنا بوجه التقريب على تاريخ كتابتها وعلى الظروف التي كُتبت فيها، فموضوع الرسالة هو وفود الفقيه المشاور ابن رشد إلى المغرب ولقاؤه لأمير المسلمين وما وصفه من سوء أحوال الأندلس، ويبدو من الرسالة أن هذه الأحوال بلغت حدًّا عظيمًا من الاضطراب إذ أن أمير المسلمين بعد فيها بأن يتخذ للأمر أهبته: (.. ولن نألو جهدًا مبذولاً، وجهدًا حفيلاً، وعزمًا لا نابيًا ولا كليلاً، فيما ندرأ وندفع، ونذود عن حوزة الملة ونمنع، ونداب لذلك (الدأب) الحثيث، ونتبع القديم فيه بالحديث).

فما هي هذه الأمور التي أزعجت أمير المسلمين كل ذلك الإزعاج؟ من الواضح أن الأمر يتعلق بخطر كان يتهدد الإسلام في بلاد الأندلس، خطر حمل الفقيه ابن رشد القرطبي إلى تجشُّم مشاقّ الرحلة إلى مراكش حتى يبسط الأمور بين يدي عليّ بن يوسف.

وابن رشد هو أبو الوليد محمد بن أحمد جدّ الفيلسوف الأندلسي المشهور الذي حمل هذا الاسم أيضًا، ولد بقرطبة في سنة ٤٥٠ (١٠٥٨) ودرس في الأندلس على جلة علمائها، ثم تولى قضاء الجماعة في قرطبة سنة ٥١١ (١١١٧) وظل في هذا المنصب حتى سنة ٥١٣(١١١٩) أو ٥١٥ (١١٢١) حين استعفى من القضاء حتى يفرغ لكتابة مجموعته الفقهية الكبيرة (البيان والتحصيل)، وكانت وفاة ابن رشد في قرطبة في الحادي عشر من ذي القعدة سنة ٥٢٠ (أول يولية سنة ١١٢٦) [١].

---

(١) في ترجمة ابن رشد انظر: ابن بشكوال: الصلة، ترجمة ١١٥٤ ؛ الضبي: البغية، ٢٤، ابن

أما سفارته إلى مراكش فقد أمدنا مؤرخو المغرب عنها ببيان مفصل، وأوفى ما جاء في ذلك هو ما ذكره صاحب (الحلل الموشية) الذي قال: إن الفقيه ابن رشد جاز إلى المغرب في سنة ٥١٩(من ٧ فبراير ١١٢٥ إلى ٢٦ يناير ١١٢٦) فوصل إلى مراكش عاصمة المرابطين حيث استقبله أمير المسلمين بكثير من الحفاوة، وكان الهدف من سفارته هو إطلاع عليّ بن يوسف على أحوال الأندلس وما جناه عليها النصارى المعاهدون من استدعائهم الملك النصراني (ابن رذمير)، وهو ألفونسو الأول الملقب بالمحارب Alfonosoi el Batallador ملك أرغن Aragon، وكان الملك المسيحي قد توجه في أواخر شعبان سنة ٥١٩ (أوائل سبتمبر ١١٢٥) على رأس حملة كبيرة إلى بلاد الأندلس فاخترقها من الشمال إلى الجنوب، فخرج من سرقسطة، ثم توجه إلى بلنسية فخرَّب بسائطها، ثم هاجم جزيرة شقر Alcira ودانية Denia ومنها إلى مرسية ثم إلى بسطة Baza ووادي آش Guadix، ومن هناك توجه إلى غرناطة مخربًا كل القرى التي مرَّ عليها في طريقه وضرب الحصار على غرناطة وإن لم يستطع دخولها، ثم واصل سيره مخترقًا إقليم قرطبة وملحقًا بجيش المسلمين هزيمة فادحة في الرنيسول Anzul بقرب اليسانة Lucena، ثم تابع مسيره إلى الساحل مقتحمًا إقليم رية (مالقة وأرشذونة) والبشرات Alpujarras حتى وصل إلى قرية بلش malaga-Velez على ساحل البحر الأبيض، وأنشأ بها جفنًا صغيرًا يصيد له حوتًا، فأكل منه كأن ذلك كان رمزًا لاقتحامه بحر المسلمين. ومن هناك توجَّه الملك المسيحي عائدًا إلى بلاده بعد أن بقي نحو سنة يضرب بلاد المسلمين دون أن يجد من أهلها مقاومة تذكر[1].

فرحون: الديباج المذهب ص٢٧٨- ٢٧٩ ؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٣٨٤/١ ؛ والذيل ١/ ٦٦٢.

(١) عن هذه الحملة انظر: الحلل الموشية ص ٧٥-٨٠ (وترجمة أويثى الإسبانية ص ١٠٩ - ١١١) ؛ ابن الخطيب: الإحاطة (ط. محب الدين الخطيب) ٢٠/١-٢٤ ؛ الإحاطة (ط. الأستاذ

وقد كان مما أعان ألفونسو الأول على القيام بهذه الحملة أن النصارى المعاهدين كانوا هم الذين كاتبوه وتوالت عليه رسلهم مطمعة إياه في دخول غرناطة، ثم إنهم كانوا يعززونه ويقوون صفوفه أينما توجه ويدلونه على عورات البلاد حيثما سار، وقد أوغر ذلك صدور المسلمين عليهم بطبيعة الحال، وفي ذلك يقول ابن الخطيب نقلاً عن ابن الصيرفي: (ولما بانُ للمسلمين من مكيدة جيرانهم المعاهدين ما أجلت عنه هذه القضية أخذهم الإرجاف). ووجّه القاضي أبو الوليد ابن رشد الأجر، وتجشّم المجاز، ولحق بالأمير عليّ بن يوسف بن تاشفين بمراكش، فبيّن له أمر الأندلس وما منيت به من معاهديها وما جنوه عليها من استدعاء الروم وما في ذلك من نقض العهد والخروج عن الذمة، وأفتى بتغريبهم وإجلائهم عن أوطانهم، وهو أخفُّ ما يؤخذ به من عقابهم) [١].

فالرسالة التي بين أيدينا تشير إذن إلى سفارة ابن رشد هذه التي قام بها لإطلاع أمير المسلمين على حال الأندلس بعد تلك الغزوة الجريئة التي قادها الملك المسيحي في قلب بلاد المسلمين والتي أفتى ابن رشد نفسه بعدها بإجلاء النصارى المعاهدين (Los Mozarabes) عن أرض الأندلس. ولعل هذه السفارة هي آخر ما اضطلع به الفقيه القرطبي، إذ أنه توفي في بلده قرطبة بعد عودته بقليل في أواخر سنة ٥٢٠ (يولية ١١٢٦). أما ما وعد أمير المسلمين في نهاية الرسالة باتخاذه من إجراءات لمواجهة الموقف فلا شك في أنه كان من أولها قراره بتغريب النصارى المعاهدين عملاً بمشورة ابن رشد، وقد تم ذلك

محمد عبد الله عنان) ١/١١٤-١٢٠ ؛ وكذلك:

Dozy, Recbercbes...., I. Pp. 348-363 Codera, Decadencia.. p.13-16; Bosch Vila, Los Almoraoides, pp. 233-236.

ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان) ص١٤٦ - ١٥٠

(١) الإحاطة (ط. عنان) ١/١١٩ - ١٢٠

في رمضان من هذه السنة نفسها (من ٢٠ سبتمبر إلى ١٩ أكتوبر ١١٢٦) أي بعد وفاة ابن رشد بنحو شهرين. فأجلى عدد كبير من هؤلاء النصارى إلى منطقتي مكناس وسلا وغيرهما من أراضي المغرب[1].

الرسالة الثانية

كاتب هذه الرسالة هو ابن أبي الخصال، وهي صادرة عن عليّ بن يوسف من حضرة مراكش في يوم الاثنين من منتصف شوال سنة ٥٠٧(٢٥ مارس سنة ١١١٤)، وهي موجهة في صورة بيان من الأمير إلى أهل الأندلس كافة. أما موضوعها فهو إعلام الشعب الأندلسي بما استقر عليه عزم أمير المسلمين من التجهز للغزو والجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام، ونأخذ من الرسالة أن الأمير قد اتخذ أهبته واجتهد في الاستعداد وبالغ فيه: (. . . ونحن وإن كنا بالغنا في الاحتشاد والاستعداد، واستنهضنا من الأجناد والأمداد، ما يربى على الإحصاء والتعداد - إلخ).

وإذا قابلنا ذلك باليسر النزر مما احتفظت به المراجع التاريخية من أخبار هذه السنة من حكم المرابطين في الأندلس فإننا نجد في الواقع تأكيدًا لما تشير إليه الرسالة من احتفال المرابطين واهتمامهم بدفع النصارى عن بلاد الأندلس. فقد كانت سنة ٥٠٧ (١١١٣-١١١٤) في الحقيقة سنة جهاد متصل ونشاط عسكري لم يتكلل دائمًا بالنصر، إلا أن المرابطين أبلوا فيه على أية حال أجمل البلاء، ولم يقصروا خلاله في الدفاع عن الإسلام قط، ونحن نرى من ذلك أن عليّ بن يوسف بن تاشفين ومن ورائه عماله وقواده في الأندلس لم يكلُّوا عن الكفاح أبدًا على الرغم من تجمع قوى النصرانية عليهم من جهة، وكراهية بعض طبقات

---

(١) الحلل الموشية ص٧٩-٨٠ (وترجمة أويثي الإسبانية ص ١١٥).

الشعب الأندلسي لحكمهم من جهة أخرى، وهي كراهية ليس لها ما يبررها ولا تُفَسَّر إلا بعاطفة قومية متعصبة ضيقة التفكير قصيرة النظر.

ونحن نعرف من غزوات المرابطين الموفَّقة التي وُجِّهت في سنة ٥٠٧ المذكورة غزوة مزدلى بن سلنكان الذي أرسله عليّ بن يوسف خاصة من مراكش إلى الأندلس عاملاً على قرطبة وغرناطة، ولم يضع مزدلى وقته إذ أنه لم يصل إلى مقر عمله حتى توجَّه بقواته إلى إشبيلية مستمدًّا عاملها الأمير سير بن أبي بكر اللمتوني، وسارت جيوش المرابطين إلى طليطلة عاصمة مملكة قشتالة، ففتح مزدلى كثيرًا من حصون طليطلة ودوَّخ بسائطها وأبلغ في نكايتها، ويذكر ابن أبي زرع أن خبر اقتحام مزدلى لأرض طليطلة اتصل بالقائد المسيحي البرهانس Alvar Fanez، فأقبل للقاء مزدلى ولكنه لم يسعه إلا الفرار أمامه، ورجع القائد المرابطي إلى قرطبة ظافرًا غانمًا، وما زالت حملات مزدلى تتردد على طليطلة حتى استشهد غازيًا في شوال سنة ٥٠٨ (مارس ١١١٥) [١]، وخلفه على قرطبة ابنه محمد الذي استشهد أيضًا بعد ثلاثة شهور.

كذلك من مظاهر الجهود العسكرية المتزايدة التي بذلها المرابطون في هذه الفترة تلك الحملة التي قادها في سنة ٥٠٨ القائدان المرابطيان محمد بن الحاج ومحمد ابن عائشة إلى أرض برشلونة (إمارة قطلونية Cataluna)، وهي منطقة لم يعد أحد من أهل الأندلس المسلمين يجرؤ على اقتحامها منذ أكثر من مائة عام حينما كانت تتوالى عليها هجمات المنصور بن عامر وابنه عبد الملك المظفر. ولا غرو فإن هذين القائدين كانا من خيرة من أنجبه الحكم المرابطي

(١) عن هذه الغزوة انظر: ابن عذارى: البيان المغرب (الجزء المخطوط الخامس بدولة المرابطين) ورقة ٢٤ ؛ ابن أبي زرع: روض القرطاس ٨٦/٢-٨٧ ؛ السلاوي: الاستقصا ٥٩/٢ (وهو اختصار لما كتبه ابن أبي زرع) ؛ ابن الكردبوس: الاكتفا (حسب الترجمة الإنجليزية التي قام بها باسكوال دي جاينجوس وجعلها ذيلاً لترجمته لكتاب نفح الطيب للمقري)
Pascual de Gayangos, History of Mohammedan Dynasties in Spain, vol. II, Appendix C,p.XLVIII.

من عباقرة السياسة وفرسان الحرب. وقد بدأت غزوتهما الجريئة بداية طيبة إذ أصابا كثيرًا من الغنائم، غير أن ابن الحاج عند عودته اتخذ طريقًا آخر غير الذي سلكه في ذهابه، وكان طريقًا جبليًا ضيقًا، وما كاد يتوسّطه حتى أطبق عليه كمين من النصارى فقاتلهم قتال من أيقن بالموت. واستشهد في هذه المعركة التي يعرفها مؤرخو المسيحيين باسم كونجست دي مارتوريل Congost de Martorell ؛ أما ابن عائشة فلم يفلت إلا بصعوبة شديدة[1].

وهكذا نرى أن النشاط العسكري للمرابطين في هذه السنة وما تلاها قد بلغ أوجه، وأقبلت جيوشهم تسد الثغرات التي كانت تضعف من قوة الخطوط الدفاعية الإسلامية في الأندلس في جميع الجهات، وفي كل ذلك تأييد لما تذكره الرسالة التي بين أيدينا من اجتهاد الحكومة المرابطية في الاستعداد للجهاد واتخاذ الأهبة له.

وهذا وفي الرسالة المذكورة ناحية أخرى جديرة بالملاحظة، ونعني بها اهتمام الحكومة المرابطية إلى جانب الاستعداد المادي بالاستعداد الروحي، فأمير المسلمين يدعو أهل الأندلس إلى إخلاص الدعاء والنية والتضرع لله وسؤاله النصر والمعونة إذ (أن الدعاء إذا وافق إجابة يمضي حيث ينبو الحديد المذرب، ويكبو العديد المتهيب)، وهو أمر لا نستغربه من سلطان عميق التدين مثل عليّ بن يوسف، وهذا الجانب الديني من حكم المرابطين هو الذي كثيرًا ما حمل بعض المؤرخين المحدثين من أجله على حكومتهم، إلا أن الذي يتأمل أحوال الأندلس في عهد ملوك الطوائف فإنه يرى ما بلغته من تحلل ديني وخلقي كان هو العلة الأولى للتفكك السياسي الذي بقي يتهدد الإسلام بالانهيار في هذه

(١) عن هذه الواقعة انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس ٢/٨٣-٨٤ ؛ السلاوي: الاستقصا ٢/ ٥٨، وانظر ما كتبه عنها: الدكتور حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلسي ب.، ص ١١٢ - ١١٣
F. Codera. Decadencia... pp, 20-22, 272-278; Bosch Vila. Almoraoides, pp .189-190.

البلاد منذ أوائل القرن الخامس الهجري لولا أن هرع المرابطون إلى نجدته واستنقاذه، ولهذا كان من الطبيعي أن يلح الأمير المرابطي على هذه الناحية ويطلب إلى أهل الأندلس مزيدًا من العناية بذلك (الجهاد الأكبر) - جهاد أنفسهم وإخلاص نيتهم لله دون أن يعني ذلك تقصيرًا فيما كانت الدولة المرابطية مشتغلة به من أمر الجهاد العسكري.

الرسالة الثالثة

كاتب هذه الرسالة هو ابن أبي الخصال، وهي صادرة عن عليّ بن يوسف إلى ابنه أبي بكر من حضرة مراكش يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٢٠ (٢٤ مارس سنة ١١٢٦).

ولهذه الرسالة قيمة عظيمة في بيان عدة نواحي متعلقة بتاريخ المرابطين أولها ما توضحه من أسرة عليّ بن يوسف نفسه وأبنائه، وهذه مسألة من أكبر نواحي التاريخ المرابطي غموضًا وأجدرها بالإيضاح، إذ أن حديث المؤرخين القدماء عنهم مضطرب أشد الاضطراب، والروايات التاريخية عن ذلك حافلة بالتناقض والتضارب؛ ثم إن في هذه الرسالة ما يطلعنا على بعض التفاصيل الخاصة بالنظام الإداري والسياسي والعسكري للمرابطين وطريقتهم في الحكم.

والذي يفهم من هذه الرسالة أنها ردٌّ على كتاب من أبي بكر بن عليّ بن يوسف إلى أبيه وصف فيه (الحال الجارية بحكم الأقدار النافذة الماضية)، وهي إشارة يفهم منها وقوع حادث خطير مؤسف، فإننا نجد في جواب عليّ بن يوسف بعد هذه العبارة (وألا صارف لما أمضاه، ولا معقب لما شاءه وقدّره لا إله سواه)، ثم إن الرسالة تتحدث بعد ذلك عما قد يكون لهذا الحادث من تأثير على المسلمين في الأندلس من تثبيط لعزائمهم. وإضعاف لروحهم المعنوية، فتدعو أبا بكر بن عليّ إلى أن يعمل على ضبط الأمور ومواصلة الجهاد، ثم تتبع

ذلك بما قرره أمير المسلمين من تقديم ابنه أبي بكر على جميع الجيوش في الأندلس عمومًا يشمل من كان هناك منها ومن وصل من المغرب إليها، وأنه قد كتب إلى جميع عمال الدولة (بالأندلس) بالسمع منه والطاعة له، ثم تضيف الرسالة إلى ذلك إشارة لها مغزاها: (وليست الحال الآن كالحال قبل، فإنها الآن يتنوط بك الدق منها والجل، والكثر والقل)، ومعنى هذا أن أبا بكر كان في هذا الوقت يتولى بعض أعمال الأندلس، إلا أن رسالة عليّ بن يوسف هذه قد قدمته إلى مكان أرفع وأسمى: إلى مكان القيادة العامة لجميع جيوش المرابطين في الأندلس، وتنتهي الرسالة بوصية أبيه إليه بمواصلة الجهاد وبالتشاور مع سائر القوَّاد بحيث لا يستأثر ولا يستبد ولا يتخذ قرارًا إلا بعد عرضه على أهل الرأي.

وأول ما يستحق التعليق هنا هو ما يتصل بأبي بكر بن عليّ بن يوسف الذي وُجِّهت إليه الرسالة: من هو؟ وما مكانه من سائر أبناء أمير المسلمين عليّ بن يوسف.

الواقع أن الأخبار الخاصة بأبناء السلطان المرابطي محوطة بالغموض مما يحملنا هنا على الحديث عنهم بشيء من التفصيل[1]. وقد ذكر ابن أبي زرع من هؤلاء الأبناء ثلاثة: تاشفين المولى بعده، وأبا بكر، وسير (في الأصل

---

(١) كان كوديرا قد اختص أبناء عليّ بن يوسف بالبحث في دراسته التي كتبها عن أسرة بني تاشفين

(La famifia real de las Beni-Texufin, en Estudios eriticos de bistoria arabe-espanola, vol. Ix, pp. 75-165).

غير أن المخطوطات الجديدة التي اكتشفت في السنوات الأخيرة قد قللت من قيمة هذه الدراسة وكشفت النقاب عن كثير مما أغمض على هذا الباحث، ولعل خير ما كتب أخيرًا عن هذا الموضوع هو البحث الذي وضعه الأستاذ أويثي بعنوان (عليّ بن يوسف وأعماله في الأندلس):

A. Huici Miranda Ali b. Yusuf y sus empresas en al-Andalus en Tamuda, Tetuan,1959, pp.77-122.

إذ أنه أفرد بعض صفحات هذا البحث للكلام عن أبناء عليّ بن يوسف (الملحق رقم ١ ص ١٠٤ أ١٠٦)

سيرى)[١]؛ أما صاحب (الحلل الموشية) فهو يذكر منهم - في آخرين- تاشفين المولى بعده، وسير، وأبا بكر الذي يقول إنه كان يُلقَّب ببكور، وإنه كان شجاعًا مقدامًا وإن أباه سجنه في الجزيرة الخضراء حتى توفي في سجنه، ويضيف إلى ذلك أن مولده كان لستة عشر عامًا من مولد أبيه (أي أنه وُلد في سنة ٤٩٣/ ١٠٩٩-١١٠٠ إذا عرفنا أن عليّ بن يوسف ولد في سنة ٤٧٧/ ١٠٨٤-١٠٨٥)[٢]، وقد أدى هذا الاضطراب إلى اختلاف المؤرخين المحدثين حول أبي بكر هذا، فاعتبره معظمهم هو نفسه المذكور باسم (سير) وأن (أبا بكر) ليست إلا كنية له[٣].

على أننا نستطيع أن نؤكد أن (أبا بكر) و (سير) أخوان مختلفان متميزان كل التميز[٤].

أما سير فإنه هو الذي أعلنه أبوه عليّ بن يوسف وليًا لعهده فانعقدت له البيعة في يوم الجمعة ١٤ جمادى الأولى سنة ٥٢٢ (١٥ يونيه ١١٢٨) كما ينص على

---

(١) روض القرطاس ٧٨/٢، هذا وإن كان المعروف أن أبناء عليّ بن يوسف أكثر من هذا العدد بكثير، وقد تحدث ابن أبي زرع في مواضع مختلفة من كتابه عن بعض من لم يذكر أسماءهم هنا.

(٢) هذا هو مجمل نص (الحلل الموشية) حسب طبعة الأستاذ. علوش الذي لم يعتمد في نشره لهذا النص على مخطوطاته الأخرى التي كانت محفوظة ببعض المكتبات الأوربية، وهي تختلف عن نص علوش اختلافًا بينًا، فقد نقل دوزي هذا النص عن مخطوطتي ليدن ومجموعة جاينجوس بهذه الصورة: (أبو بكر سير درج في حياته ويدعى ينكور، وكان ذا حدة وشجاعة ب إلخ) انظر:

Dozy, Loci de Abbadidis, I, pp. 18-19.

(٣) F. Cosera: La familia real de los Beni-Tezufn,en Estudios crilicos de bistoria arabe-espanoola vol. IX, pp. 117-120.

(٤) كنت قد رجحت ذلك مما جمعته من مختلف المراجع المعروفة التي استطعت الانتفاع منها، حتى وقعت إلى مخطوطة البيان المغرب (المرابطي) التي قام بنسخها الأستاذ أوبثي تمهيدًا لنشرها، والتي تفضل بإطلاعي عليها المستشرق الإسباني الجليل، وحينئذ أصبحت متأكدًا من صواب هذا الرأي.

ذلك ابن عذارى [١] والوراق في كتابه (المقباس) [٢]، ويضيف ابن الخطيب إلى ذلك أن عليّ بن يوسف ولّى ابنه الثالث تاشفين في نفس الوقت على الأندلس كلها فكبر ذلك على سير وفاوض أباه في عزله معبرًا عن حسده لأخيه لما حمله من ثناء الناس وذكرهم حتى إن اسم تاشفين غطى على اسمه وأمال إليه جميع أهل المملكة، فلم يسع أباه إلا أن عزل تاشفين عن الأندلس وأمره بالوصول إلى حضرته، فرحل عن الأندلس في أواسط سنة ٥٣١ (أوائل سنة ١١٣٧)، فوصل إلى مراكش وصار في جملة من يتصرف بأمر أخيه سير ويقف ببابه كأحد حجابه [٣].

وقد بقي سير وليًا للعهد منذ سنة ٥٢٢ حتى وفاته سنة ٥٣٣ (١١٣٨ / ١١٣٩) [٤]، ويذكر ابن الخطيب أنه توفي (على الصورة القبيحة) التي وعد بتفصيلها عند ترجمته له، وقد حاول دوزي أن يفسر هذه الصورة القبيحة على أنها كانت وفاة سير في سجن الجزيرة الخضراء، إذ افترض دوزي أن نص (الحلل الموشية) يدل على ذلك [٥]، على أن كوديرا استبعد ذلك إذ لو كان صحيحًا لكان المعقول هو أن يعزله أبوه عن ولاية العهد أولاً، والنقود التي عُثر عليها منصوصًا فيها على ولاية سير لعهده أبيه مستمرة إلى سنة ٥٣٣ التي توفي فيها. على أن نص (البيان المغرب) المرابطي قد قطع الجدل في ذلك، إذ أنه

---

(١) البيان المغرب، ورقة ٣٤.

(٢) حسبما نقل عنه ابن الخطيب في الإحاطة (ط. عنان) ١/٤٥٤.

(٣) نفس الموضع السابق، والبيان المغرب، ورقة ٣٥.

(٤) يتفق هذا التاريخ تمامًا مع ما ذكره كوديرا من أن من بين النقود المرابطية التي عثر عليها مجموعة ضُربت في مراكش والمرية وإشبيلية منصوصًا فيها على (سير وليّ العهد)، أما تاريخ ضرب هذه النقود فإنه ينحصر بين سنتي ٥٢٢ و٥٣٣ ؛ انظر:
Codera, Lfamilia real...., pp.119-120.

(٥) Dozy: Loci de Abbadidis, I,pp. 18-19؛ وهذا ما يمكن أن يفهم من نص (الحلل) حسب مخطوطتيه الأوربيتين اللتين رجع إليهما دوزي، أما النص كما نشره علوش فإنه لا يستنتج منه شيء من ذلك.

يصرح لنا في حوادث سنة ٥٣٣ بأن سيرًا (كان يركن إلى الراحة ويصطحب أهل الفكاهة، فاقتحم ليلاً على أخيه تاشفين في داره، فضربه وقضي عليه فمات[١]، ويبدو أن سيرًا حاول اغتيال أخيه تاشفين، فتنبه هذا إليه ودارت الدائرة على المتعدي.

وأما أبو بكر فإنه أقل هؤلاء الثلاثة من أبناء عليّ بن يوسف نصيبًا من عناية المؤرخين حتى إن بعض المؤرخين المحدثين خلطوا بينه وبين أخيه سير، وشكوا في وجود ابن لعليّ بن يوسف يحمل هذا الاسم[٢].

ومجمل ما استطعنا جمعه من أخبار أبي بكر بنِ علي في المراجع التاريخية هو أنه كان أكبر أبناء عليّ بن يوسف إذ أنه ولد في سنة ٤٩٣ (١٠٩٩-١١٠٠) حينما كان أبوه يناهز السادسة عشرة من عمره، وكان يلقب ببكور أو بكو[٣]،

---

(١) البيان المغرب، ورقة ٤٦ ؛ أما ابن القطان فإنه يسوق خبر مصرع سير بصورة أخرى، إذ يقول: (وفي هذه السنة [٥٣٣هـ] هلك سير بنُ عليّ بن يوسف في أخر صفر، وكان عليّ بن يوسف قد فُتن به وقدَّمه ولي عهده، ولم يكن أهلاً لشيء، فعكف على البطالة، ودخل متسورًا على أخيه عمر يريد زوجته، فجرح جراحة عجلت منيته) (نظم الجمان، ورقة ٨٢ب)

(٢) نلاحظ بهذه المناسبة أن من أسباب اضطراب أخبار المؤرخين عن أمراء المرابطين ورجال دولتهم بوجه عام هو أن كثيرًا منهم كانوا يُذكرون بكناهم أو بأسماء أمهاتهم أو أجدادهم دون أسمائهم، ولنشر من أمثلة ذلك إلى: أبي بكر بن عمر (ابن عم يوسف بن تاشفين وأمير المرابطين قبله) ؛ وأبي بكر بن يوسف بن تاشفين (الذي توفي بسبتة بينما كان أبوه في معترك وقعة الزلاقة) ؛ والقائد أبي محمد ابن فاطمة ؛ وابن عائشة ؛ وابن الصحراوية ب إلخ ؛ ويبدو أن هذه التسميات كانت جريًا على عادة قديمة ذائعة في أوساط القبائل البربرية، ونلاحظ بوجه خاص أن اسم (أبي بكر) كان من أكثر الأسماء ذيوعًا لدى صنهاجة ولمتونة ومسوفة وغيرها من قبائل المرابطين، فقد تسمَّى به كثير من أمرائهم ورجالاتهم لا على أنه كنية وإنما اسم علم لا يُعرف الشخص إلا به.

(٣) في نص الحلل الموشية (ط. علوش) ص ٦٨: (ب. ويدعى ببكور)، وقد قرأ دوزي هذه الكلمة عند نقله لهذا النص معتمدًا على المخطوطتين الأوربيتين (بنكور) وفسَّرها بأن معناها (الأسد) تشبيهًا له به في الإقدام والشجاعة (Loci de Abbadidis,I,P 18) ؛ أما أويثي فقد قرأها (بكور) وفسرها بأن أبا بكر كان أول أبناء عليّ بن يوسف أو (باكورتهم) (ص٩٩-١٠٠ من الترجمة الإسبانية للحلل)، ومن الجلي أن تفسير دوزي فيه كثير من الإبعاد والتعسف، وأما تأويل أويثي فهو أقرب إلى المعقول.

ويبدو أنه نشأ في الأندلس كما جرت عادة عليّ بن يوسف في تربية أبنائه، فدرج في إشبيلية وقام على رعايته وتأديبه الطبيب الأندلسي المشهور أبو مروان ابن زهر، على أنه - فيما يظهر- لم يكن مكبًا على الدرس منصرفًا إلى التحصيل مما دعا والده في إحدى المناسبات إلى تقريعه ونهره، وكلُّ ذلك نأخذه من وثيقة مهمة كانت من بين الرسائل المرابطية التي اضطلع بنشرها الدكتور حسين مؤنس، وهى رسالة قصيرة صادرة من عليّ بن يوسف إلى ابنه أبي بكر المذكور يقول فيها: (كتابنا ألهمك الله رشد نفسك - من حاضرة مراكش - بعد وصول الوزير الجليل أبي مروان ابن الوزير - أبي العلاء ابن زهر محل أبينا - يشكو ما يكابده من تشغيبك، ويقاسيه من تضريبك، فأمسك عليك رمقك، وخذ من الأمور ما يسر، وإلا أنفذناك إلى ميورقة ...)[١].

ولعلَّ أول منصب رسميّ أُسند إلى أبي بكر بن عليّ بن يوسف كان تولّيه حكم إشبيلية خلفًا لعمّه تميم بن يوسف بن تاشفين الذي عُزل عن حكم هذه المدينة في ذي الحجة سنة ٥١٧ (يناير - فبراير ١١٢٤)، على أنه لم يضطلع بحكم إشبيلية إلا في شهر المحرم سنة ٥١٨ (فبراير - مارس ١١٤٢)[٢]

وقد أمدنا (البيان المغرب) بتفاصيل قيمة عن بعض ما قام به أبو بكر في أثناء حكومته لإشبيلية، من ذلك دوره في تلك الحملة المشهورة التي قادها ابن رذمير (ألفونسو المحارب) إلى بلاد الأندلس في سنة ٥١٩ (١١٢٥-١١٢٦)، إذ أن أبا بكر تحرك على رأس جيوش إشبيلية في أثر ألفونسو حينما وصل هذا إلى قبرة Cabra، ويبدو أنه اشترك في الموقعة التي دارت بين المسلمين وبين

(١) الدكتور حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة ب، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثاني، ص٦٨-٧٠.

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ورقة ٣٠، وانظر كذلك كتاب مفاخر البربر ص ٨١ حيث يورد قائمة بأسماء ولاة إشبيلية وفيها يجعل أبا بكر عاملاً لهذه المدينة خلفًا لمن يسمّيه ((القائد أبا يعقوب ابن عليّ))، وانظر كذلك أويثي:عليّ بن يوسف وأعماله في الأندلس ص ٩٦ ، ١٠٤.

ألفونسو عند حصن أرنيسول، وهي التي انتهت بهزيمة المسلمين، ولما حلَّ ابن رذمير بوادي آش سار إليه أبو بكر وأرغمه على فكِّ الحصار عن هذه المدينة [١].

ونستنتج من الرسالة التي بين أيدينا أن أبا بكر بن عليّ قد كتب إلى أبيه في هذه المناسبة شارحًا الظروف التي وقعت فيها حملة ألفونسو المحارب على الأندلس ومبينًا ما أصاب المسلمين من جرَّاء هذه الحملة، وقد رأينا كيف حمل سوء أحوال شبه الجزيرة قاضي الجماعة بقرطبة أبا الوليد بن رشد على الجواز إلى مراكش والتحدث إلى أمير المسلمين بنفسه حول ذلك، والرسالة التي وجهها عليّ بن يوسف إلى أهل الأندلس بهذه المناسبة، ويمكن أن نلحق بذلك هذه الرسالة الثانية التي وجهها الأمير إلى ابنه أبي بكر يحثه على بذل أقصى الجهد والمال في سبيل حماية المسلمين وتجنب عودة مثل هذه الحملات النصرانية إلى التكرر.

وأهم ما في هذه الرسالة التي احتفظ لنا بتاريخها (٢٧ صفر سنة ٥٢٠ أي ٢٤ مارس ١١٢٦) أن عليّ بن يوسف قد أسند بمقتضاها إلى ابنه أبي بكر قيادة الجيوش بجزيرة الأندلس: (. . . وقد رأينا - أن نقدمك على جميع الجيوش بتلك الجزيرة - عمومًا يشمل من كان هناك منها ومن وصل من هذه العدوة - إليها، وخاطبنا عمالك بالسمع منك والطاعة لك)، ولم ينص أي مرجع تاريخي مما وصل إلينا على هذه التولية إلا أنها ثابتة لنا بحكم هذه الرسالة، ومعنى ذلك أن القيادة العليا للجيوش الأندلسية قد أسندت إلى أبي بكر في نفس الوقت الذي كان يتولى فيه حكم إشبيلية إذ أننا نعرف أنه لم يُعزل عن هذه المدينة إلا في رجب سنة ٥٢٢ (يولية ١١٢٨) [٢].

---

(١) البيان المغرب: ورقة ٣١ مكرر ؛ أويثي: عليّ بن يوسف ب ص٩٨-٩٩.

(٢) البيان المغرب: ورقة ٥١ ؛ أويثي: عليّ بن يوسف ب ص١٠٨.

وربما كان مما يؤكد صحة ما جاء في هذه الرسالة من تعيين أبي بكر قائدًا عامًا بالأندلس ذلك الخبر الذي نقله ابن عذارى[1] وذكر فيه أن أبا بكر توجه في جيوشه من إشبيلية إلى غرناطة التي كان يحكمها أخوه أبو حفص عمر بن عليّ فدخلا المدينة في أجمل هيئة واستعرضا معًا جيوش هذه المنطقة وبقي أبو بكر بظاهر غرناطة أيام ثم قصد إلى شرق الأندلس واقتحم في طريقه حصنًا كان الروم قد تملكوه غدرًا فنصب عليه الحرب ودخله عنوة وامتلأت أيدي المسلمين بكثير من الأسلحة والآلات والمتاع، ثم عاد إلى غرناطة ومنها توجه راجعًا إلى إشبيلية. وفي هذا الخبر ما يدل على أن سلطة أبي بكر بن عليّ بن يوسف كانت أكبر من سلطة مجرد عامل لأمير المسلمين على إحدى المدن الأندلسية وهو ما يمكن أن نفسره بما تنص عليه الرسالة من إسناد القيادة العليا إليه.

ويذكر صاحب (مفاخر البربر)[2] أن أبا بكر أسند إليه عمل غرناطة ولكننا لا نجد في غير هذا الكتاب تأكيدًا لهذا الخبر إلا ما يذكره ابن الخطيب نقلاً عن الملاحي في معرض الحديث عن الأمير المرابطي أبي بكر بن إبراهيم بن أبي يحيى المسوفي الصحراوي إذ يقول إنه ولي غرناطة فحدث خلاف بينه وبين قومه فقبضوا عليه ووجهوه إلى عليّ بن يوسف، فآثر الإبقاء عليه ؛ فابن الخطيب يعلق على ذلك الخبر بقوله: (وعندي أن الأمر ليس كذلك، وأن الذي جرى له ذلك أبو بكر بن يوسف بن تاشفين، فليتحقق)[3].

على أن الذي نعرفه بوجه التأكيد أن أبا بكر بن علي قد عُزل بعد ذلك عن إشبيلية وعن مركز قيادة الجيوش بالأندلس في رجب سنة ٥٢٢ (يولية ١١٢٨)، ويقول ابن القطان في سبب ذلك (وفيها [في سنة ٥٢٢] استرعى عليّ بن يوسف

---

(١) البيان المغرب، ورقة ٣٣، أوبثي: عليّ بن يوسف ب ص ١٠٢.
(٢) ص ٨٢.
(٣) الإحاطة (ط.عنان) ٤١٦/١.

البيعة لابنه سير فعُقدت له البيعة بقرطبة؛ وبعدها عزل عليّ ولده أبا بكر عن إشبيلية وغربه مكبولاً إلى الصحراء لأمر نُسب إليه لأنه لم يرض بيعة أخيه)[1]، ويبدو أن أبا بكر الذي رأيناه منذ صباه وشبابه حاد الطبع شديد الاعتداد بنفسه لم يرض عن تولية أخيه سير العهد، ولعله كان يرى نفسه أحق بذلك إذ أنه كان أكبر إخوته مما جعله يكثر الخوض في ذلك حتى عزله أبوه ونفاه إلى الصحراء كما نرى من هذا النص.

وقد بقي أبو بكر في المغرب مدة، ويظهر أن أباه رضي عنه بعد ذلك إذ أننا نراه يسند إليه بعض مناصب القيادة على جيوش المرابطين التي كانت تحاول إخماد الثورة الموحدية في المغرب، وينص المؤرخ الموحدي البيذق على أن جيوش ابن تومرت أحرزت نصرًا كبيرًا على أبي بكر في منطقة السوس [2]، ثم عاد الموحدون فألحقوا به هزيمة عظيمة في أغمات بعد مقتلة شديدة استمرت ثمانية أيام [3]، وأخيرًا اشترك أبو بكر في قيادة الجيوش المرابطية التي انتصفت بعد ذلك من الموحدين وأوقعت بمحمد بن تومرت في سنة ٥٢٤(١١٣٠) تلك الهزيمة المشهورة في الوقعة التي عُرفت باسم (البحيرة) [4].

(١) نظم الجمان ورقة ٣٣ب.

(٢) البيذق: أخبار المهدى ص ١٣١ من النص العربي و ص ٢٢٢ من الترجمة الفرنسية ؛ وانظر كذلك كتاب أويثي عن (تاريخ الدولة الموحدية)

A. Huici, Historia Politica del Imperio Almobade, I,p.70

هذا ونص البيذق يسميه (بكور بن عليّ بن يوسف) ويحتمل هنا إما أن يكون تحريفًا لاسم (أبي بكر) (وسنرى في معرض بعض الوقائع الأخرى أن ابن أبي زرع والسلاوى يسميانه أبا بكر بالفعل)، وإما أن يكون ذلك هو اللقب الذي عُرف به والذي حُرِّف في النسخة المطبوعة من (الحلل الموشية) إلى (بكور) كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ١١٨/٢-١١٩ ؛ السلاوي: الاستقصا ٨٤/٢؛ ابن القطان: نظم الجمان، ورقة ٣٩ب ؛وقد سماه المرجعان الأولان (أبا بكر) والثالث (بكو)؛ هذا وقد تحدث عن هذه الوقعة صاحب الحلل الموشية (ص٩٢) وابن خلدون دون الإشارة إلى أحد هذين الاسمين؛ وانظر ما كتبه عنها أويثي في (تاريخ الدولة الموحدية) ٨٠/١.

(٤) السلاوي: الاستقصا ٨٠/٢-٨١ ؛ وقد نقل السلاوي هذا النص عن تاريخ ابن خلدون (العبر

وفي سنة ٥٣٣ توفي ولي العهد سير بن علي فجعل عليّ بن يوسف ولاية العهد بعده إلى ابنه تاشفين، فعاد أبو بكر إلى إبداء سخطه وتذمره، إذ رأى نفسه -وهو أكبر إخوته- منحىً عن ولاية العهد مرة أخرى، ولما ضاق به أبوه أمر بنفيه ثانية، ويقول في ذلك ابن عذارى: (أمر [عليّ بن يوسف] عند ذلك بإخراج ابنه أبي بكر من مراكش وحمله إلى الجزيرة الخضراء ليسجن بها لأنه خاف من خوضه في أمور، فأصاب أبا بكر مرض فكان الرجال يحملونه على أعناقهم، ووصل المذكور إلى الجزيرة فسُجن بها ولم تطل مدة محبسه هذا إلى أن هلك)[١]، وهكذا مات هذا الأمير بعد حياة مضطربة صاخبة.

ونضيف إلى ذلك أنه كان لأبي بكر بن علي هذا ابن يُدعى يحيى اشترك بعد ذلك في القتال الذي دار بين الموحدين والمرابطين في أواخر أيام هؤلاء، فقد أشار ابن الأبار إلى يحيى هذا الذي كان يُلقَّب بابن الصحراوية، وقال إنه كان عاملاً لعمه تاشفين بن علي على تلمسان في الوقت الذي أحدقت فيه جيوش الموحدين بسائر مدن المغرب في سنة ٥٣٩ (١١٤٤/ ١١٤٥)، وكان خبر موت عمه تاشفين قد بلغه والموحدون ضاربون حصارهم على المدينة فلم يسعه إلا أن يسلمها لعبد المؤمن ويخرج عنها[٢]. وتذكر المراجع التاريخية بعد ذلك في أخبار سنتي ٥٤٢ و٥٤٣ أن شخصًا يسمَّى يحيى بن أبي بكر الصحراوي قام بإعلان الثورة على الموحدين في مدينة سبتة بعد أن كانت قد خضعت لهم، وقد درس المستشرق الإسباني الأستاذ كوديرا هذه الثورة وانتهى منها إلى أن يحيى المذكور هو الذي أشار إليه ابن الأبار في النص السابق، واستدل على ذلك بقطعة من النقود عُثر عليها أخيرًا، وهي دينار من الذهب مضروب في سبتة سنة

٢٢٨/٦) إلا أن ابن خلدون يسميه هنا (بكر بن علي) لا أبا بكر كما ذكر السلاوي.

(١) البيان المغرب، ورقة ٤٩.

(٢) الحلة السيراء (ط. دوزي) ص ١٩٨.

٥٤٣ مكتوب فيه (. . المهدي الذي يشرك النبي ، أمير المسلمين يحيى بن أبي بكر عليّ بن يوسف) [(١)]. على أن كوديرا كان قد اعتبر اسم (أبي بكر) مجرد كنية للأمير سير بن عليّ بن يوسف جاعلاً من هذين الأخوين شخصًا واحدًا، ولهذا فإنه لم ير مفرًّا من القول بأن يحيى هذا كان ابنًا لسير وإن كان قد استغرب أن يُسمَّى مرة باسمه ومرة بكنيته [(٢)]، وقد أوضحنا صحة الأمر في ذلك فيما سبق بما فيه الكفاية .

الرسالة الرابعة

كاتب هذه الرسالة هو ابن أبي الخصال، وهي صادرة عن عليّ بن يوسف من حضرة مراكش لخمس بقين من ذي الحجة سنة ٥٢٣ (٢٨ ديسمبر ١١٢٩) .
أما الوحيدي الذي وُجِّهت إليه الرسالة فإنه بغير شكٍّ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عمر القيسي المالقيّ [(٣)]، وكان من عائلة وجيهة عُرفت بالعلم والنباهة، ولد في سنة ٤٥٦ ، وكان في شبابه مقبلاً على لذّاته وإن لم يترك طلب العلم، فقد درس الفقه والحديث على القاضيين أبي المطرف الشعبي وأبي الوليد الباجي، ثم انقطع للعبادة والعلم، وولي القضاء بريه، ثم ببلده مالقة، واستمرت ولايته ثمانية عشر عامًا، فلما آنس في نفسه ضعفًا وكبرة استعفي من القضاء وقبض يده عن أخذ الجراية كالمعتاد لأمثاله من القضاة، وما زال يُلِحُّ على الأمير في ذلك حتى أعفاه، وتوفي في ٢٦ من المحرم سنة ٥٤٣، ودفن

---

(١) انظر تعليق كوديرا على ذلك وتفصيل أخبار ثورة سبتة في بحثه عن (بني تاشفين) ص١٥٤-١٥٥.

(٢) نفس المرجع ص ١٦٠-١٦١.

(٣) انظر ترجمته في ابن بشكوال: الصلة، ترجمة ٦٤٧ ؛ الضبي: بغية الملتمس، ترجمة ٩٠٢ ؛ ابن دحية: المطرب ص٢١٨ ؛ النباهي: المرقبة العليا ص ١٠٤-١٠٥، ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٥٥، المقري: نفح الطيب ٣٦١/٤-٣٦٣.

بمسجد حكمه الذي ظل يحمل اسمه في داخل أسوار مالقة حتى القرن الثامن الهجري على ما يذكر النباهى.

وأما هذه الرسالة التي وجهها إليه عليّ بن يوسف فإنها تطلعنا على بعض جوانب صورة النظام الحاكم والإدارة في عهد المرابطين، والعلاقة بين السلطتين القضائية والتنفيذية، ومدى اختصاص القضاة في المناطق التي يَلُونَ عملهم فيها، ومبلغ رعاية سلاطين المرابطين لشئون رعيتهم وإقرار العدل بينها.

وينبغي أن نبين أولاً أن هذه الرسالة الموجهة إلى قاضي مالقة لم تكن مجرد خطاب مرسل إليه من قبل السلطة العليا، بل إنها كانت في الوقت نفسه أشبه ببيان رسمي عام تعلنه الحكومة على الشعب الأندلسي أجمعه، ويدل على ذلك هذه الإشارة الخاصة التي جاءت بعد نهاية نص الخطاب: (. . . ليقرأ الكتاب على الكافة بالمسجد)، وفي هذا ما يضاعف من قيمة الرسالة إذ أنها ليست خاصة بحالة معينة محدودة، بل هي أشبه بدستور تسنّه الدولة، وتحدد فيه اختصاص السلطة القضائية والعلاقة بينها وبين سائر السلطات.

ومناسبة هذه الرسالة هي أن وفودًا من أهل مالقة وأعمالها على ما يظهر كانت قد حلّت بعاصمة المملكة (مراكش). متوجهة بظلاماتها أو (أرفاعها) -كما تقول الرسالة- إلى حضرة الأمير عليّ بن يوسف، وأن الأمير في تيقظه واستقامته وتحريه وجه الحق- وهو ما لم ينكره أحد من المؤرخين على علي بن يوسف[1]- رأى أنه قد يختلط في هؤلاء الشاكين والمتظلمين المحق بالمبطل، والصادق بالكاذب، وهكذا قرر ألا ينظر في ظلامات الجميع شارعًا لذلك قاعدة

---

(١) انظر ما كتبه حول ذلك ابن أبي زرع: روض القرطاس ٩٤/٢، الحلل الموشية ص٦٩، السلاوي: الاستقصا ص٥٣-٥٥، وانظر الفصل الذي كتبه عن المرابطين عامة والمستشرق الإسباني فرانسسكو كوديرا في كتابه (انحلال دولة المرابطين ب) ص١٨٩-٢٢١، ويكاد كوديرا يكون أحد المؤرخين الأوربيين القلة الذين أنصفوا حكم المرابطين - ولا سيما حكم عليّ بن يوسف- من العبارات الظالمة التي صوّرهم بها دوزي.

محددة: هي أنه لن تقبل شكاية من أحد إلا إذا كان معها بيان من قاضي بلده يدل على صحة ظلامته.

وهو يتبع ذلك بالحديث عن واجبات القضاة، ولا شك في أن هذا البيان الذي تتضمنه رسالة عليّ بن يوسف يزيد في اختصاصات القضاة ودائرة أعمالهم فهو يكل النظر في كل تلك الظلامات إلى قضاة البُلدان حتى لا يتجشم المظلومون مشقة السفر إلى العاصمة لعرض شكاواهم على السلطان.

ولهذا فهو يخاطب الوحيدي قائلاً: (وقد قلدناك تقليدًا تامًّا أن تنظر بجهتك من شكاوي العامة في اللطيف والجليل) ويأمره بتقصّي أحوال الرعية ومراقبة عمالها وولاتها. فمن رأى منه ظلمًا أو تقصيرًا فلينه أمره إلى (صاحب البلد) أي حاكم الإقليم، فإن أنفذ عزله وإلا فليكتب بأمره إلى أمير المسلمين؛ وفي هذا ما يدلنا على أن سلطة القاضي أصبحت فوق سلطة الحاكم الإداري فهو الرقيب على هذا الحاكم وعلى الولاة والعمال التابعين له، وهو المسئول عن ذلك كله وعليه تقع تبعة ما يحدث من ظلم العمال والولاة، والسلطان موافق له في كل ما يقرر كما يظهر من قوله له (وأي عذر لك وقد شددنا من أزرك؟ - إلخ).

ثم إن في الرسالة إشارة إلى ناحية مهمة من نواحي النظام القضائي في المغرب والأندلس على عهد المرابطين تلك هي الوظائف التي كان يتولاها من يسمونه بـ (الحكام)، ووظيفة (الحاكم) هذه ليست عملاً إداريًّا كما قد يبدو من هذا اللفظ لأول وهلة، وإنما هي وظيفة قضائية خالصة كان يُطلق على متوليها كذلك لقب (صاحب الأحكام)، ويرجع وجود هذه الوظيفة إلى أواخر عهد الخلافة الأموية في الأندلس كما ذكر الأستاذ ليفي بروفنسال[1]، على أنها تبدو بشكل واضح مفصل في عهد الدولة المرابطية، وفي الرسالة الموجهة إلى

(١) انظر تاريخ إسبانيا الإسلامية ٣/١٢٦-١٢٧، وقد اعتمد الأستاذ بروفنسال في التدليل على ذلك بما ورد في كتاب (الأحكام الكبرى) لابن سهل وفي عدة تراجم لبعض هؤلاء (الحكام) جاءت في (صلة) ابن بشكوال و (تكملة) ابن الأبار ورسالة ابن عبدون في الحسبة.

القاضي الوحيدي والتي هي موضوع هذه الدراسة بيان واف بأحكام هذا المنصب. نشير هنا إلى أهم جمله ((ومدار هذا الأمر اختيار (الحكام) الذين استنبتهم في أقطارك القاصية ونصبتهم في الجهات النائية . . . إلخ)) ثم يمضي محددًا الشروط التي ينبغي أن تتوفر في هؤلاء الحكام من ثقة وديانة وأمانة وعفاف وزهد وتحفظ، وللقاضي - كما يبدو من عبارات الرسالة - سلطة مطلقة في تعيين هؤلاء وعزلهم وعقابهم دون رجوع إلى أمر السلطان نفسه ولا أمر عامله على الإقليم.

الرسائل الخامسة والسادسة والسابعة

كاتب هذه الرسائل الثلاث هو أبو بكر ابن القصيرة الذي كان كاتبًا من قبل للمعتمد بن عباد ثم ليوسف بن تاشفين وبعد ذلك لابنه علي، على أن هذه الرسائل التي هي موضوع بحثنا إنما ترجع إلى عهد هذا الأمير الأخير كما ينص على ذلك جامعها، والخامسة والسادسة منهما وجهتا من عاصمة الدولة المرابطية مراكش، أما السابعة فإن عليّ بن يوسف وجهها من (محلّته بظاهر قرطبة) أي أنها كتبت في الأندلس خلال إحدى الزيارات العديدة التي قام فيها المرابطي بالجواز إلى هذا الجزء من مملكته. ولم يحتفظ لنا الجامع بتواريخ هذه الرسائل غير أنه يمكن أن نقول إن جميعها كانت في الفترة الواقعة بين سنة ٥٠٠ وهي التي ولي فيها عليّ بن يوسف أمر المغرب والأندلس بعد وفاة أبيه وسنة ٥٠٨ التي كانت فيها وفاة ابن القصيرة.

ويجمع بين هذه الرسائل أنها كلها تقريبًا وصايا من السلطان المرابطي إلى رعيته الأندلسيين. وجماع هذه الوصايا يكاد ينحصر في تقوى الله، والاتحاد واجتناب التفرق والحزازات، ثم طاعة ولاة السلطان وعماله والبعد عن التشغيب عليهم والعصيان لأوامرهم ؛ والروح الدينية هي الغالبة على كل هذه

الرسائل وهو أمر تميزت به الدولة المرابطية وجميع أمرائها، كذلك يبدو لنا من الإلحاح على دعوة الأندلسيين إلى الطاعة والانقياد ما يدلنا على أن الأمور كانت قد بدأت تضطرب على الحكم المرابطي منذ السنوات الأولى لإمارة عليّ بن يوسف، حتى إننا نراه مضطرًا إلى توجبه هذا الإنذار الشديد إلى رعاياه من الأندلسيين كما نرى في الرسالة السابعة التي كتبها من ظاهر محلته بقرطبة حيث يقول: وإياكم والخوض في أمر جعلناه إليه [إلى واليه على بعض الأعمال]، واحذروا من تعقب ما صغر أو كبر عليه، وأضربوا عنه، ودعوا ما لا يعنيكم منه، وليرشد خياركم شراركم، وليبصر كباركم صغاركم، وحسبنا هذا إنذارًا لكم، وإعذارًا إليكم، ولا عذر بعد ولا يَلُمْ من تعدى إلا نفسه).

وشيء آخر نستنتجه من هذه الرسائل هو اتجاه الحكم المرابطي إلى ضرب من (اللامركزية) في إدارتهم. فنحن نرى عليّ بن يوسف في الرسالة السادسة يقول عن واليه إنه (بلساننا متكلم، وعما في ضميرنا مترجم، وفي قالب رأينا مفرغ - ما أمضاه أمضيناه، وما وقفه وقفناه)؛ وفي الرسالة السابعة يعود إلى مثل ذلك، وفي نفس هذا العبارات تقريبًا إذ يقول (قد فوضنا إليه في ذلك كله، وأفردناه النظر في دقه وجله - وما فعل من ذلك كله فنحن فعلناه، وما قاله فيه فكأنما نحن قلناه - إلخ).

الرسالتان الثامنة والتاسعة

كاتب هاتين الرسالتين هو ابن القصيرة، وأولاهما وُجِّهت عن علي بن يوسف من مراكش دون تحديد لتاريخها، أما الثانية فقد وُجِّهت من محلة الأمير بظاهر مدينة سبتة في يوم الاثنين منسلخ ذي الحجة سنة ٥٠٦ (١٧ يونية ١١١٢) ويجمع بين الرسالتين أن كلتيهما تصور مركز الفقهاء في الدولة المرابطية، وهو أمر كثرت كتابة المؤرخين القدماء والمحدثين عنه، فهو في الرسالة الأولى التي

يبدو أنه وجهها إلى أحد عماله يأمره أن يستشير أحد الفقهاء في مختلف أمور الحكم: (فينبغي أن تشاوره في كل ما تأتي وتذر، وتورد وتصدر، وتقدم وتؤخر) وإذا كنا قد لاحظنا مما رأيناه في الرسائل السابقة أن نظام الحكم المرابطي كان متجهًا إلى (اللامركزية) بحيث كان لعامل الأمير سلطة واسعة في التصرف في أمور الحكومة دون رجوع إلى السلطان فإننا نجد هنا خاصية أخرى من خصائص حكم المرابطين، وهي (الديمقراطية)، والواقع أن حكم المرابطين منذ إمارة يوسف بن تاشفين كان ذا طابع ديمقراطي إلى حد بعيد، فقد كان سلاطينهم لا يكادون يبتون في أمر إلا ورجعوا فيه إلى كبار أهل الرأي، وإذا قدرنا غلبة الروح الدينية على حكم المرابطين فإنه يمكن أن نخلص من ذلك إلى أن (أهل الرأي) هؤلاء إنما كانوا كبار الفقهاء وأصحاب الفتوى، وقد كان يوسف بن تاشفين على ما يذكر المترجمون له (يفضِّل الفقهاء ويعظِّم العلماء ويصرف الأمور إليهم ويأخذ فيها برأيهم ويقضي على نفسه بفتياهم)[١] وسار عليّ بن يوسف على نهج أبيه في ذلك، فردَّ أحكام البلاد إلى القضاة وعوَّل على الفقهاء[٢] بل إننا نجد مظهرًا واضحًا (للديمقراطية) عليّ بن يوسف عند أخذه البيعة لمن يخلفه بعد وفاته[٣] فإنه لم يكتف باستشارة من جرت العادة بطلب رأيه من الفقهاء والعلماء، بل إننا نراه يتوجه إلى المسجد الجامع فيجمع الناس فيه خاصة وعامة ويعرض عليهم الأمر فينادون كلهم في صوت واحد بإسناد العهد إلى تاشفين فلم يسعه حينئذ إلا أن ينزل على حكمهم ويعقد لتاشفين البيعة، وأما تاشفين فإن الأخبار التي حفظت عنه تدل على أنه اقتدى بابيه وجده في ذلك

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب (القسم المرابطي) ورقة ١٨.
(٢) الحلل الموشيه ص ٦٩، ابن أبي زرع: روض القرطاس ٧٩/٢.
(٣) ابن الخطيب: الإحاطة (ط. عنان) ٤٥٥/١، ابن عذارى: البيان المغرب (المرابطي) ورقة ٤٧.

والرسالة التاسعة تؤكد لنا هذه الناحية فعليّ بن يوسف فيها يعبر عن غضبه واستيائه لما كانت تقابل به أحكام (الفقيه قاضي القضاة بالشرق) من اعتراض طائفة من الناس في هذه المنطقة، وهو لهذا يحث عامله عليها على حماية جانب هذا القاضي وإنذار المعترضين عليه بتوقيع أشد العقاب عليهم إن لم يدعوا مخالفة أحكامه وأوامره.

هذا ويستوقف النظر عنا لقب (قاضي قضاة الشرق)، والمعروف أن اللقب الذي كان يتخذه قضاة الأندلس في قرطبة على عهد الخلافة الأموية هو (قاضي الجماعة) الذي كان يشبه لقب (قاضي القضاة) بالمشرق، على أنه حينما انفرط عقد الخلافة الأموية عاد قضاة قرطبة إلى اتخاذ لقب (قاضي القضاة) تقليدًا للرسوم المشرقية [١]، ويبدو أن المرابطين أدخلوا على النظام القضائي تعديلاً له أهميته حينما آلت الأندلس إلى حكمهم إذ أنهم قسموها إلى ثلاث مناطق إدارية كبيرة: الشرق والغرب والموسطة كما سبق أن أشار إلى ذلك الدكتور حسين مؤنس في تعليقه على إحدى الوثائق المرابطية التي نشرها [٢].

هذا ولم نهتد إلى معرفة شخصية (قاضي القضاة بالمشرق) المذكور وإن كنا نعتقد أنه يمكن أن يكون أبا أمية إبراهيم بن عصام المعروف بابن منتيل الذي توفي سنة ٥١٦ (١١٢٢-١١٢٣) وهو يتولى هذا المنصب [٣].

* * *

---

(١) انظر ليفي بروفنسال: تاريخ ٣/١١٨-١٢٠.

(٢) سبع وثائق جديدة: صحيفة المعهد مجلد سنة ١٩٥٤- ص٧٣.

(٣) انظر ترجمته في قلائد العقيان ص٢٠٣ ؛ ابن سعيد: المغرب ٢/٢٥٨ ؛ ابن الأبار: التكملة (الجزء الأول، ط. بن شنب بالجزائر) ص ١٧٣ ؛ ابن الأبار: معجم أبي علي الصدفي، رقم ٤١ ص٥٦.

الرسالة العاشرة

هي من تأليف ابن القصيرة أيضًا، كتبت عن عليّ بن يوسف من حضرة مراكش وهي مجهولة التاريخ وإن كان يغلب على الظن أنها صدرت عن الأمير في أوائل أيام حكمه أي في نحو سنة ٥٠٠ (١١٠٦)، إذ أنها رد على كتاب بيعة ورد إليه من بعض أعمال مملكته بالأندلس، ويعد الأمير فيه بأن يولي أهل البلد ما يستحقونه من الرعاية والاهتمام، ويقول إنه أنفذ إليهم مع كتابه هذا صكًّا (يحملون فيه على ما تضمن كتاب بيعتهم).

الرسالة الحادية عشرة

من إنشاء ابن القصيرة أيضًا من حضرة مراكش، وتاريخها آخر ذي الحجة سنة ٤٩٩ (١ سبتمبر ١١٠٦)، ومعني ذلك أن هذا الكتاب إنما وُجِّه عن علي بن يوسف قبل وفاة أبيه يوسف بن تاشفين بيوم واحد، إذ أننا نعلم أن يوسف توفي في مستهل شهر المحرم سنة ٥٠٠ (٢ سبتمبر ١١٠٦)[١]، بعد مرض استطال منذ سنة ٤٩٨، ونفهم من الرسالة التي بين أيدينا أن يوسف بن تاشفين حينما اشتد به المرض أسند إلى ابنه وولى عهده عليّ التصرف في أمور الدولة باسمه[٢].

---

(١) انظر روض القرطاس ٧٧/٢ والبيان المغرب (القسم المرابطي) ورقة ١٧ وهذان المرجعان يذكران أن وفاته كانت في يوم الاثنين مستهل شهر المحرم، أما ابن خلكان (وفيات ٦/ ١٢٥) فإنه يذكر أن يوسف توفي لثلاث خلون من شهر المحرم.

(٢) ويدل على ذلك ما ذكره ابن عذارى في البيان المغرب (ورقة ١٨) من أنه في سنة ٤٩٩ قرئ كتاب نفذ من (وليّ العهد) (أي عليّ بن يوسف) في إشبيلية بعزل قاضيها، مما يدل على أنه كان يتصرف في أمور الحكم عن أبيه، كذلك ذكر ابن عذارى أنه لما استأثرت العلة بأمير المسلمين أوصى بالأمر إلى ولده وليّ عهده (أي عليّ) فاضطلع أبرع اضطلاع وقام أحمد مقام.. إلخ.

وقد جاء في الرسالة أن الأمير تلقى الكتاب الذي وجهه إليه عدد من الفقهاء لم يثبت جامع الرسائل أسماءهم، وكان قد تكفل بحمل هذا الكتاب سفارة تتألف من بعض رجالات الأندلس، فأطلع هؤلاء أمير المسلمين على أحوال هذا الجزء الكبير من المملكة المرابطية، كما تذكر الرسالة أن الأمير أبا الطاهر (يعنى تميمًا بن يوسف أخا علي) قد تقدم بجلاء أحوال هذه البلاد، وكان تميم بن يوسف قبل ذلك واليًا لأبيه على شرق الأندلس حتى بلغه مرض أبيه فانتقل إلى مراكش في خلال سنة ٤٩٩ كما ينص على ذلك صاحب البيان المغرب [١].

ونلاحظ أن الحديث عن أمثال هذه السفارات قد تكرر في تلك الرسائل مما يدلنا على أن اهتمام أمراء المرابطين بالأندلس لم ينقطع طيلة عهدهم حتى في الوقت الذي اضطربت فيه عليهم بلاد المغرب من جرَّاء بوادر الثورة التي أضرمها عليهم محمد بن تومرت المهدي.

الرسالة الثانية عشرة

تشابه هذه الرسالة التي سبقتها في كثير من النواحي فالموضوع تقريبًا هو نفسه، ولهذا فإننا نرجح أنها كُتبت في نفس السنة التي وُجِّهت فيها الرسالة المتقدمة أي سنة ٤٩٩، ولعلها كانت قبل هذه بقليل إذ ينص كاتبها على أنها رد على رسالة بعثها أحد عمال المرابطين على الأندلس في مستهل ذي القعدة (أغسطس سنة ١١٠٦)، على أن لها أهميه خاصة فهي تشير إلى وفد قدم إلى مراكش متألف من أعلام مدينة بلنسية، وكانت بلنسية قد دخلت في طاعة المرابطين منذ أن استنقذها قائدهم مزدلي في سنة ٤٩٥ (١١٠٢) بعد أن ظلت طيلة ثماني سنوات تحت حكم السيد القنبيطور El Cid Campeador، ولنا

(١) ورقة ١٧.

أن نتصور أن مهمة هذه السفارة كانت إطلاع يوسف بن تاشفين على آخر تطورات الموقف في الأندلس عامة وفي شرق الأندلس بوجه خاص، ويبدو أن هذه السفارة وصلت إلى مراكش في الوقت الذي كانت العلة فيه قد اشتدت بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين كما سبق أن بينا في التعليق على الرسالة السابقة، وهذا هو ما يفسر أن المضطلع بتوجيه هذا الكتاب إنما كان هو ولى العهد عليّ ابن يوسف.

كذلك نرى فيها إشارة إلى اجتماع عليّ بن يوسف بأخيه أبي الطاهر تميم وما ألقى به هذا إليه من وصف أحوال (تلك الجهات) (أي بلنسية وشرق الأندلس) بصورة وافية مفصلة، وهذا يتفق مع ما ذكره ابن عذارى من أن تميمًا كان في هذه السنة (٤٩٩) يتولى شرق الأندلس، ثم إنه لما بلغته علة أبيه توجه إلى مراكش في نفس هذه السنة، ولعله قدم على رأس تلك السفارة التي تتحدث الرسالة عنها [١].

وتشير الرسالة إلى شخصية أخرى قدمت مع هذا الوفد، إلا أن الاسم لم يذكر كاملاً إذ هو في النص «أبو عبد الله محمد بن أبي [ويتلو ذلك بياض صغير]»، ونرجح أن يكون تمام الاسم (. . . بن أبي بكر اللمتونى)، وكان هذا من أكبر قواد المرابطين الذين اتصلوا اتصالاً مباشرًا بمحنة بلنسية حينما استولى عليها السيد القنبيطور، وذلك بشهادة ابن عذارى الذي يذكر أن أهل شرق الأندلس كانوا قد خاطبوا يوسف بن تاشفين بفساد بلادهم منذ أن أخذ بمخنقها الفارس القشتالي المشهور فتحرك يوسف إلى سبتة وأقام هناك يجند الأجناد وجعل قيادة تلك الجيوش وأمرها إلى نظر ابن أخيه الأمير أبي عبد الله، ويزيدنا ابن عذارى تعريفًا به فيقول إنه كان ابن أخي يوسف بن تاشفين لأمه [٢]

---

(١) البيان المغرب ورقة ١٧.

(٢) انظر القطعة التي نشرها ليفي بروفنسال من البيان المغرب في مقاله الذي كتبه عن (استيلاء

ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب الحلل الموشية كذلك وإن كان خبره شديد الإيجاز[١]، وقد أفاض ابن عذارى في الحديث عن الوقائع الدائرة ببلنسية، وبين لنا كيف أعمل السيد الحيلة على القائد المرابطي الذي كان مريضًا في هذا الوقت حتي هزم قواته واقتحم محلته مما تسبب في غضب عمه يوسف بن تاشفين عليه مدة، ثم عاد إلى الرضا عنه وأمره بلزوم شاطبة وقطع الطرق إلى بلنسية، وما زال يمده بالأموال والرجال حتى عظم جيشه، إلا أنه كتب إليه بعد ذلك يأمره بالقدوم عليه وأرسل مكانه لتولي قيادة الجيوش أبا الحسن علي بن الحاج [٢]. وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن تاشفين هو الذي نراه بعد ذلك واليًا على قرطبة من قبل عليّ بن يوسف في سنة ٥٠١ (١١٠٧)[٣].

وتذكر الرسالة أيضا أن عليّ بن يوسف أصغى إلى الأعيان الواردين من قبل (يحيى بن تاشفين) و (محمد بن تومرت). أما يحيى بن تاشفين فحول اسمه وشخصيته خلاف كبير بين المؤرخين، ونعتقد أنه هو الذي ذكره ابن عذارى باسم أبي بكر يحيى بن تاشفين وقال إنه كان ابن عم علي بن تاشفين شقيق أبيه لأمه [٤]، وإذا ذكرنا أن ابن عذارى قال أيضًا في الحديث عن نسب أبي عبد الله محمد بن أبي بكر اللمتونى أنه كان ابن أخي يوسف بن تاشفين لأمه فإنه يمكن أن نستنتج أن محمدًا ويحيى هذا كانا أخوين، ويكون اسم يحيى الكامل إذن هو

السيد على بلنسية):
E. Levi-provencal. La toma de Valencia por El Cid, en Al-Andalus. Vol. XIII, 1948 p. 115.

(١) الحلل الموشية ص٥٧ من النص العربي و٨٥ من ترجمة الأستاذ أويثي الإسبانية وقد ذكره صاحب الحلل باسم (محمد بن تاشفين) فقط.

(٢) انظر القطعة المشار إليها من البيان المغرب ص ١١٨-١١٩ وانظر ما كتبه حول ذلك يوسك فيلا في كتابه عن المرابطين ص١٥٦ أ١٥٩.

(٣) البيان المغرب ورقة ١٦ وانظر مقال أويثي:
Ali b. Yusuf y sus empresas en el-Andalus, en Tamuda, 1959 p. 110.

(٤) البيان المغرب ورقة ٢٠.

أبا بكر يحيى بن أبي بكر بن تاشفين، وهو الذي نعلم مما أورده عنه ابن عذارى أنه ولي على قرطبة في سنة ٥٠٩ (١١١٥-١١١٦) بعد مصرع واليها محمد بن مزدلى [١] ولعله هو نفسه الذي يذكره ابن أبي زرع والسلاوي [٢] قائلين إنه توجه إلى لاردة في سنة ٥١١ (١١١٧) مع عبد الله بن مزدلى مُمِدَّيْنِ لتميم بن يوسف في جهوده لرد النصارى عن حصار هذه المدينة، ويبدو أنه ظل حاكمًا على قرطبة حتى سنة ٥١٤(١١٢٠-١١٢١) حينما خلفه عليها يحيى بن رواد [٣].

وأما (محمد بن تومرت) فإن الإشارة إلى شخص يحمل هذا الاسم في تلك الرسالة المرابطية على الصورة الواردة هنا محير حقًّا. فمن الواضح أنه لا يمكن أن يكون بطل الثورة على المرابطين ومهدي الموحدين، ويبدو كذلك من الغريب أن يكون أحد رجالات المرابطين وأن يوافق اسمه اسم مؤسس الدولة الموحدية على هذا النحو دون أن يستحق ذلك التوافق الغريب إشارة من مؤرخي الدولة المرابطية أو الموحدية. هذا وإن كنا نعرف أن اسم (تومرت) لم يكن غريبًا على المغرب والأندلس قبل محمد بن تومرت المهدي فقد تسمّى به من قبل كاتب أندلسي عاش في القرن الرابع الهجري وتوفي سنة ٣٩١هـ. قبل مولد تومرت أب المهدي بسنوات كثيرة كما نبه على ذلك الباحث المستشرق جولدتسيهر [٤].

أتراه خطأً من الناسخ إذ أقحم اسم محمد بن تومرت هنا سهوًا ؟ لا نستطيع أن نقطع بذلك ونكتفي بأن نعرض هنا هذا الاسم كما جاء في الرسالة التي بين أيدينا لعل أحدًا يهتدي إلى علة وجوده في هذا السياق.

---

(١) نفس الموضوع السابق.

(٢) روض القرطاس ٢/٨٨ (وقد حُرِّف الاسم إلى ابن يحيى بن تاشفين) والاستقصا ٢/٦٠ (إلا أنه سماه أبا يحيى بن تاشفين).

(٣) انظر مقال أويثي المشار إليه ص ١١٠.

(٤) انظر كتاب أويثي عن تاريخ الدولة الموحدية ١ / ٢٦.

أما باقي فقرات الرسالة فيدور حول اهتمام أمير المسلمين بهذه المنطقة المشرقية من الأندلس، ويبدو من عبارتها مدى ما أصاب هذه الناحية من جرَّاء احتلال السيد لبلنسية وإضرار المسيحيين بها واهتمام الحكومة المرابطية بتحصينها وإلقاء الطمأنينة في قلوب أهلها.

الرسالة الثالثة عشرة

من إنشاء ابن القصيرة أيضًا، وهي موجهة من الأمير علي بن يوسف من حضرة مراكش في يوم الأربعاء دون تحديد لليوم وإن كان قد ذكر الشهر والسنة (محرم سنة ٥٠٠ = سبتمبر سنة ١١٠٦) أي بعد أيام من تنصيب علي بن يوسف على عرش المغرب والأندلس بعد وفاة أبيه، ويبدو من الرسالة أنها موجهة إلى أهل أحد الأعمال الأندلسية بالانصياع والطاعة لواليه على هذا البلد وهو شخص يسمّى (أبا محمد عبد الله بن محمد)، وإذا تأملنا الأخبار التي احتفظت لنا بها المراجع عن حكام الأندلس في هذه الفترة فإنه يسهل علينا أن نستنتج أن هذا الحاكم المقصود ينبغي أن يكون أبا محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة، أما الجهة التي تنص الرسالة على توليته عليها فينبغي أن تكون بلنسية.

أما ابن فاطمة المذكور فقد كان أحد مشاهير القواد المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين وابنه علي، وقد اضطربت المراجع التاريخية في اسمه كعادتها عند الحديث عن رجالات هذه الفترة، إذ نجد ابن أبي زرع والسلاوي يسميانه في بعض المواضع أبا عبد الله محمد بن فاطمة [1] وتابعهما على ذلك بعض الباحثين المحدثين [2] والواقع أن هذا خطأ، والصواب في الاسم أنه أبو محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة، وقد أمدنا (البيان) المرابطي عنه بأخبار مفصلة

(١) روض القرطاس ٧٦/٣، الاستقصا ٥٩/٢.

(٢) مثل بوسك فيلا في كتابه عن المرابطين ص ١٦٦، ١٧٧، ١٨٠-١٨٣.

تطلعنا على نشاطه العسكري والإداري في الأندلس والمغرب، ونعرف من هذه الأخبار أنه تولى قيادة جيش قوامه ألف وخمسمائة فارس ممدًّا للقائد مزدلى بن سلنكان الذي استنقذ بلنسية في سنة ٤٩٥(١١٠٢) من أيدي المسيحيين بعد استيلاء السيد القنبيطور عليها، وكان توجُّه ابن فاطمة إلى شرق الأندلس في سنة ٤٩٦(١١٠٣) [١]، وفي السنة التالية يسند إليه يوسف بن تاشفين القيادة العليا لجيوش المرابطين في منطقة شرق الأندلس ويشترك بحكم هذا المنصب العسكري مع عامل بلنسية أبي الحسن علي بن الحاج الذي اجتمع به في قلهرة Calahorra في مهاجمة قوات ألفونسو السادس ملك قشتالة حينما تصدى هذا لمدينة سالم، وقد قام الاثنان معًا بغزو طليطلة وطلبيرة [٢]، ونحن نعرف أن أبا الحسن علي بن الحاج وُجد ميتًا بعيد هذه الغزوة، ويبدو لنا أن يوسف بن تاشفين عهد إليه بأن يخلف ابن الحاج على ولاية بلنسية بعد هذه الغزوة [٣] وفي رجب سنة ٤٩٧ (أبريل ١١٠٤) يتوجه إلى سهلة بني روين Albarracin فيستولي على هذه المملكة الصغيرة ويضمها إلى سلطان المرابطين [٤]، ويبدو أن ابن فاطمة ظل عاملاً ليوسف بن تاشفين بقية أيام حكمه، وأن علي بن يوسف حينما خلف أباه على العرش أقره على منصبه، وفي رمضان سنة ٥٠١(مايو ١١٠٨) نراه بصفته عاملاً على بلنسية مشتركًا مع القائد ابن عائشة عامل مرسية في الغزوة الموفقة التي قادها تميم بن يوسف بن تاشفين ضد جيوش قشتالة وهي المعروفة بغزوة أقليش Ucles التي هُزم فيها المسيحيون هزيمة ساحقة

(١) البيان المغرب ورقة ١٥.

(٢) نفس المرجع ورقة ١٦، ومقال أويثي عن (علي بن يوسف وأعماله في الأندلس) ص ٩٣.

(٣) يذكر ابن خلدون (العبر ١٨٨/٦) أن يوسف ولاه على بلنسية خلفًا لمزدلى بن سلنكان الذي استقدمه يوسف بن تاشفين إلى المغرب، وقد تابعه على ذلك أويثي في مقاله المشار إليه ص ١١٣، على أن ما ذكرناه أشبه بالصواب.

(٤) ابن الكردبوس: الاكتفا، حسب الترجمة الإنجليزية لباسكوال دي جاينجوس Append. p. XLIII وانظر كتاب بوسك فيلا عن المرابطين ص ١٦٦.

وقُتل شانجه بن ملك قشتالة ألفونسو السادس[١].

وفي سنة ٥٠٣ (١١٠٩-١١١٠) تحرك ابن فاطمة إلى سرقسطة طامعًا في ملكها بعد وفاة المستعين أحمد بن هود وولاية ابنه عماد الدولة عبد الملك فلما انتهى إلى مقربة منها توجه إليه نفر من أهلها وطلبوا إليه أن ينصرف عنهم ولا يبدأ الفتنة خشية استصراخ ابن هود بالنصارى، فأقلع عن سرقسطة[٢].

وفي آخر هذه السنة صدر أمر عليّ بن يوسف بعزل ابن فاطمة عن بلنسية وتعيينه عاملاً على غرناطة خلفًا لأخيه تميم بن يوسف فوصل إلى مقر حكمه الجديد قبل آخر ذي القعدة سنة ٥٠٣ (مايو سنة ١١١٠)[٣] وظل حاكمًا لهذه القاعدة نحو سنة إذ أننا نجده يترك هذه المدينة في سنة ٥٠٤ (١١١٠-١١١١) ويخلفه عليها مزدلى بن سلنكان، ويظهر أن عليّ بن يوسف عيَّنه في هذه السنة عاملاً على مدينة فاس بالمغرب حيث بقي عدة سنوات [٤]، وفي شهر المحرم من سنة ٥٠٩ (يونية ١١١٥) يعود ابن فاطمة إلى الأندلس عاملاً على إشبيلية بعد عزل واليها يحيى بن سير بن أبي بكر، ويظل على حكم هذه المدينة حتى وفاته في رمضان سنة ٥١١ (يناير سنة ١١١٨) [٥].

---

(١) ابن القطان: نظم الجمان، ورقة ٧، روض القرطاس ٨٢/٢، الاستقصا ٧٥/٢؛ وانظر الحديث بالتفصيل عن دور ابن فاطمة في هذه المعركة في الرسالة التي وجهها تميم بن يوسف إلى أخيه علي عن هذه الوقعة، وقد نشر هذه الرسالة الدكتور حسين مؤنس في مقاله (الثغر الأعلى الأندلسي ...) ص ١٠٧ - ١٠٨، وقد أعاد الأستاذ أويثي نشرها في كتابه (المعارك الكبرى لحرب الاسترداد المسيحية ص ١٢٠ - ١٢٦، وانظر مقال أيثي عن (وقعة أقليش ومصرع الأمير شانجه) - مجلة تطوان ص ١٩٥٧ - العدد الثاني ص ١٢٤-١٢٥.

(٢) البيان المغرب ورقة ٢٢.

(٣) البيان ورقة ٢٢، وانظر مقال أويثي عن (علي بن يوسف وأعماله بالأندلس) ص ١١٢.

(٤) مقال أويثي المذكور ص ١١٢.

(٥) البيان ورقة ٥١، مفاخر البربر ص ٨١، نظم الجمان ورقة ٤ب، وقد ذكر ابن أبي زرع (روض ٨٦/٢) والسلاوي (استقصا ٥٩/٢) أنه ولي على إشبيلية في سنة ٥٠٧، وأنه توفي في سنة ٥١٠، على أن ما جاء في البيان أجدر بالتصديق والثقة

أما الرسالة التي بين أيدينا فإن علي بن يوسف- فيما نرى - وجهها إلى أهل بلنسية معلمًا إياهم بإقرار ابن فاطمة على حكم هذه الجهة إذ أنه قد كان يتولى حكمها خلال السنوات الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين

الرسالة الرابعة عشرة

هذه الرسالة من إنشاء أبي القاسم ابن الجد، وهي موجهة من أمير المسلمين علي بن يوسف بحضرة مراكش إلى الكاتب ابن أزرق، بتاريخ الثالث عشر من محرم سنة ٥١٤ (١٤ أبريل سنة ١١٢٠)، وفيها يستدعيه إلى حضرة مراكش لاستخدامه في ديوان إنشائه.

ولم نستطع التحقق بشكل قاطع من شخصية ابن أزرق المذكور، على أننا نرى أنه يمكن أن يكون هو الأديب الأندلسي الذي يترجم له ابن الأبار والضبي [١] تحت اسم أبي بكر يحيى بن همام بن يحيى المعروف (بابن أزرق (كذا) السرقسطى)، ويقول ابن الأبار إنه كان كاتبًا للمستعين أبي جعفر بن هود، ثم كتب ليوسف بن تاشفين ولابنه علي وكان أول استدعائه إلى مراكش في سنة ٤٩٥ وتوفي بقرطبة سنة ٥٣٧

الرسالة الخامسة عشرة

من إنشاء ابن الجد أيضًا، وهي موجهة من علي بن يوسف من حضرة مراكش إلى أحد عماله في تاريخ لم يحتفظ به جامع الرسائل.

على أننا استطعنا أن نتعرف على هذا العامل وعلى التاريخ الذي وُجِّهت فيه الرسالة، فقد احتفظ لنا بنص هذه الرسالة مرجعان: أولهما كتاب (قلائد

(١) التكملة، ترجمة رقم ٢٠٣٩؛ بغية الأنفس، رقم ١٤٩٦.

العقيان) للفتح بن خاقان[١] والثاني الجزء المرابطي المخطوط من كتاب (البيان المغرب) [٢] وكلاهما ينص على أن هذه الرسالة وُجِّهت إلى أبي محمد عبد الله ابن فاطمة العامل على إشبيلية، أما تاريخها فقد نقله ابن عذارى إذ ذكر أنه سنة ٥١٠ (١١١٦-١١١٧).

وأما موضوعها فوصية من الأمير يبدو أنه كان معتادًا على تجديدها وتكرارها إلى عماله وولاته بالتزام الرفق بالرعية وإقامة العدل بينها ورفع الحجاب عن المظلومين والشاكين.

الرسالة السادسة عشرة

من إنشاء ابن الجد، وهي موجهة من علي بن يوسف بحضرة مراكش، إلى أهل بعض أعماله في تاريخ لم يذكر، هذا وقد احتفظ ابن خاقان في (قلائده) أيضًا بهذه الرسالة ناصًا على أنها كانت إلى أهل غرناطة وعلى أن تاريخها هو يوم الجمعة ١٩ رمضان سنة ٥٠٧(٢٧ فبراير سنة ١١١٤) [٣]، وقد كان يحكم غرناطة في هذا الوقت القائد المرابطي المشهور مزدلي بن سلنكان فاتح بلنسية على ما يستنتج الأستاذ أويثي من نص (البيان) الخاص بتاريخ المرابطين [٤]، فقد خلف مزدلي هذا عبد الله ابن فاطمة على حكم غرناطة في سنة ٥٠٤ (١١١٠-١١١١)، وأضيف إليه مع غرناطة حكم قرطبة والمرية، وقد ظل مزدلي يقاوم هجمات القشتاليين على الأندلس في بسالة وشجاعة حتى قُتل في ميدان المعركة في شوال سنة ٥٠٨ (مارس سنة١١١٥)، وخلفه على حكم غرناطة ابنه عبد الله بن مزدلي.

---

(١) ص ١١٢ -١١٣. (٢) ورقة ٢٨.

(٣) ص ١١٣.

(٤) انظر مقاله عن (علي بن يوسف وأعماله بالأندلس) ص٩٠-٩٢، ١١٢.

وموضوع الرسالة هو تقريع أهل غرناطة على تشغيبهم وكثرة تحاملهم وتعصبهم على واليهم، ودعوتهم إلى التزام الطاعة والهدوء، وفي هذا ما يطلعنا على هذه النزعة التمردية التي كانت تسود أوساط الأندلسيين ضد حكامهم من المرابطين، على الرغم من الجهود التي لم يقصر هؤلاء في بذلها لحماية الأندلس من هجمات المسيحيين المتزايدة، وقد كانت حياة القائد العظيم مزدلي صورة رائعة للمحارب الذي قضى عمره في معركة دائمة ودفع حياته ثمنًا لجرأته واستبساله، وإن الذي يتأمل حياة هذا الرجل ليزداد إعجابه به فى كل الميادين التي خاضها من سياسية وعسكرية، ومع ذلك فإن الأندلسيين لم يكفوا عن إبداء تذمرهم وسخطهم على هؤلاء الولاة

الرسالة السابعة عشرة

من إنشاء ابن الجد، وهي موجهة من علي بن يوسف بحضرة ملكه مراكش إلى شخص لم يحتفظ لنا جامع الرسائل - مع الأسف - باسمه، بتاريخ عشرين أو واحد وعشرين من ربيع الأول سنة ٥١٠ (٢ أو ٣ أغسطس سنة ١١١٦) وموضوع الكتاب هو تولية لهذا الشخص الذي وُجّهت إليه الرسالة على جزيرة ميورقة.

ولهذه الرسالة قيمة عظيمة إذ أنها تطلعنا على تفاصيل تاريخية لفترة لا يعرف عنها الكثير من تاريخ الجزائر الشرقية في السنوات الأولى لاستيلاء المرابطين عليها.

ونحن نعلم أن يوسف بن تاشفين حينما جاز إلى الأندلس واستولت جيوشه على ممالك الطوائف عازلاً عنها هؤلاء الأمراء الذين أثبتوا ضعفهم وعجزهم وتخاذلهم لم يتعرض بسوء للأمير الذي كان يحكم الجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة منذ سنة ٤٨٦(١٠٩٣)، وكان في هذا الوقت مبشر بن سليمان

الملقب بناصر الدولة، ولعل يوسف بن تاشفين انبع في علاقاته بمملكة الجزائر الشرقية نفس السياسة التي ختطها مع بني هود ملوك سرقسطة والثغر الأعلى، إذ رأى أن كلتا المملكتين تقوم حائلاً بين إمارات النصارى وما يليها من بلاد المسلمين ثم إن أمراءها لم يحالفوا النصارى المتاخمين لهم ضد جيوش المرابطين ولم يقفوا من الدولة الإسلامية موقف الخيانة والتقاعس الذي وقفه غيرهم من ملوك الطوائف [١]، بل إن الذي تدلنا عليه المراجع هو أن مبشر بن سليمان أمير الجزائر الشرقية كان أكثر غيرة من بني هود على مصالح المسلمين وأقدر على حماية عمله من غارات النصارى فضلاً عن أنه أقر العدل وأحسن الحكومة وأرضي الرعية، وهكذا لم يتعرض له يوسف بن تاشفين بسوء، ويقي مبشر يحكم الجزائر الشرقية في عهده وفي السنوات الأولى من حكم ابنه علي بن يوسف حتى سنة ٥٠٨ (١١١٤) [٢].

وفي هذه السنة كانت الحملة التي ائتلفت بعض الممالك المسيحية في غرب البحر الأبيض على توجيهها إلى الجزائر الشرقية، وقد اشترك في هذه الحملة أهل بيزة وجنوة وإمارة برشلونة إذ سيروا أسطولاً مكونًا من نحو ثلاثمائة قطعة بحرية إلى جزيرة يابسة أولاً فحاصروها حصارًا شديدًا، واستبسل في مقاومتهم عامل الجزيرة الذي تسميه المراجع المسيحية Abunazare (أبا نصر؟) إلا أن

---

(١) انظر ما كتبه عن العلاقات بين المرابطين وبني هود في هذه الناحية الدكتور حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين ص ١٠٤-١٠٥.

(٢) عن مبشر بن سليمان ناصر الدولة، انظر ابن سعيد: المغرب ٢/٤٦٦-٤٦٧ ؛ ابن خلدون: العبر ٤/١٦٥؛ ابن الكردبوس: الاكتفاء (حسب الترجمة الإنجليزية التي ذيّل بها باسكوال دي جانيجوس برجمته لكتاب نفح الطيب)
Vol, II, - Appendix C p. XLVII-XL VIII .

وانظر كذلك :
Prieto y Vives: Los reyes de taifas, p. 41; Campaner y Fuertes: Bosquejo bistorico de la dominacion islamita en las islas, Baleares, p. 91 y sigts

القوات المتحالفة استطاعت الاستيلاء على الجزيرة، وأقبلت بعد ذلك على النهب والتخريب بأفظع صورة ممكنة، ثم توجهوا إلى جزيرة ميورقة فضربوا عليها حصارًا شديدًا، وأبلى مبشر بن سليمان ناصر الدولة في مقاومة المهاجمين أعظم ابلاء، إلا أنه كان قد شعر بأنه لم يكن له قبل بالاستمرار في القتال فأرسل إلى أمير المسلمين علي بن يوسف يستصرخه، وحمل رسالته إلى أمير المسلمين قائد مرابطي يسمّى أبا عبد الله بن ميمون كان يقود في هذا الوقت سفينة راسية في ميناء ميورقة حينما وقع عليها هجوم المسيحيين، فخرج ابن ميمون سرًا من الميناء دون أن تفطن إليه أساطيل المحاصرين للجزيرة، غير أنهم شعروا به أخيرًا، فتوجهت بعض سفنهم لمطاردته ولكنه تمكن من الفرار.

وشدد المسيحيون الحصار على ميورقة طوال عشرة أشهر حتى استولوا عليها أخيرًا، وكان مبشر ناصر الدولة قد مرض وتوفي في أثناء الحصار فخلفه أحد قرابته واسمه أبو الربيع سليمان (وتسميه المراجع المسيحية Burabe) وواصل هذا المقاومة بمثل بسالة سلفه ولكن النصارى أفلحوا في الاستيلاء على معاقل الجزيرة وقد تم ذلك في سابع ذي القعدة ٥٠٨(٣ أبريل ١١١٥) فألحقوا بها من الخراب ما يجل عن الوصف[١].

أما عليّ بن يوسف فإنه لم يصله صريخ مبشر حتى أمر باتخاذ العدة لاستنقاذ ميروقة من أيدي القراصنة المسيحيين الذين أطبقوا عليها فأسرع على الفور بتجهيز أسطول كبير يتألف من ثلاثمائة قطعة وأسند قيادته إلى القائد المرابطي ابن تافرطست. وما أن شعر القراصنة باقتراب الأسطول المرابطي منهم حتى عزموا على الجلاء عن الجزيرة بعد أن قتلوا كثيرًا من أهلها وأسروا كثيرين آخرين وأضرموا النيران في المدينة، وهكذا دخل ابن تافرطست الجزيرة دون مقاومة بعد أن أخلاها غزاتها من النصارى. وكان ذلك في سنة ٥٠٩ (١١١٥-

(١) انظر كامبانير إى فورتس: Op. cit., p. 119.

(١١١٦)[١].

أما ولاة المرابطين على ميورقة فإن أسماءهم ومدد ولايتهم من المسائل المضطربة في كتب المؤرخين أشد الاضطراب خلال السنوات العشر المنقضية بين سنة ٥٠٩ و٥٢٠ حينما عقد علي بن يوسف بولاية الجزر الشرقية لقائده المشهور محمد بن علي بن يحيى المسوفي المعروف بابن غانية في سنة ٥٢٠ (١١٢٦).

ولعل ابن خلدون هو المؤرخ الوحيد الذي أولى هذه الفترة بضعة سطور في موضعين من تاريخه[٢] ومجمل قوله فيها أن عليّ بن يوسف ولىّ على ميورقة من قبله وانور بن أبي بكر اللمتوني فعسف بأهل الجزيرة وأرادهم على بناء مدينة أخرى بعيدة عن البحر فامتنعوا عليه، وأوقع بهم نتيجة لذلك فقتل زعيم هذه الحركة، وحينئذ أعلنوا الثورة على وانور وصفدوه وبعثوا إلى علي بن يوسف فأعفاهم منه وولىّ عليهم محمد بن على بن غانية الذي كان يتولى قرطبة في هذا الوقت تحت إمرة أخيه يحيى بن علي بن غانية العامل على غرب الأندلس، ولما وصل ابن غانية صفد وانور وبعث به إلى مراكش، وكان ذلك في سنة ٥٢٠هـ.

وقد علق كوديرا على هذا النص فبين أن فيه عدة أخطاء تاريخية، ثم عرض تاريخًا تقريبيًا لهذه الفترة وفّق فيه بين ما قاله ابن خلدون وما ذكره غيره من المؤرخين مثل عبد الواحد المراكشي وابن الكردبوس، وهذا هو ما يراه كوديرا

(١) في هذه الحوادث انظر ما كتبه كامبانير إى فورتس في بحثه الذي أشرنا إليه عن (تاريخ الحكم الإسلامي في جزر البليار) ص٩٦-١٣٥، وهو بحث عظيم الفائدة اعتمد فيه كاتبه على المراجع الإسلامية والمسيحية على السواء ؛ وانظر كذلك كوديرا: انحلال المرابطين ص ١٦٧- ١٧١، ٣٢٤-٣٢٦ ؛ وأخيرًا بوسك فيلا: المرابطون ص١٩١-١٩٢، وهو مجرد ملخص لما كتبه المؤرخان المذكوران

(٢) ابن خلدون: العبر ١٦٥/٤، ٢٤٢/٦ ؛ والترجمة الفرنسية للبارون دى سلان تحت عنوان Histore des Berbcres (11, p. 206-207 ed.paris 1927) وكامبانير إى فورتس: المرجع المذكور ١٣٦-١٣٧.

في تاريخ عمال المرابطين على ميورقة منذ استيلائهم عليها حتى تولية محمد بن غانية عليها:

تم فتح ميورقة بعد جلاء الجنويين والبيزيين والقطلانيين عنها في سنة ٥٠٩ على يد ابن تافرطست قائد الأسطول المرابطي الذي توجه لاستنقاذ الجزر الشرقية، وكان أول ما فعله هذا القائد هو تأمين الجزر وإصلاح مدنها وبناؤها من جديد، وقد رغب ابن تافرطست جنوده وبحارته في الإقامة بالجزيرة والاستقرار بها فعاد إليها أهلها الذين كانوا لاذوا بالجبال عند وقوع الغزو المسيحي، ويبدو أن إقامة ابن تافرطست على حكم الجزيرة كانت مؤقتة ريثما يتم تعيين عامل عليها، وقد وصل هذا العامل بالفعل خلال نفس هذه السنة وكان قائدًا مرابطيًا هو وانودين بن سير الذي ظل حاكمًا لها فترة قصيرة لا تزيد على ثلاثة أشهر، ثم خلفه أبو بكر تاكراتت، وأعقب هذا وانور بن محمد الذي ثار عليه أهل الجزيرة لأنه أمرهم ببناء مدينة أخرى بعيدة عن البحر، فتمكن الثوار من القبض عليه وصفدوه وبعثوا إلى أمير المسلمين مبينين له ما وقع، فقبل عليّ بن يوسف عذرهم، وولىّ عليهم في هذه الأثناء أبو بكر علي بن ورقاء الذي توفي على الأرجح في سنة ٥٢٠، وحينئذ عهد أمير المسلمين بحكم الجزيرة إلى محمد بن غانية [١].

والرسالة التي بين أيدينا هنا تضيف جديدًا إلى ذلك، هذا وإن كان جامع الرسائل لم يحتفظ لنا مع الأسف باسم العامل الذي وُجِّهت إليه هذه الرسالة. على أننا نخلص منها بأن جزيرة ميورقة تعاقب عليها ثلاثة عمال في الفترة القصيرة الواقعة بين استنقاذها من أيدي النصارى في سنة ٥٠٩ وأوائل سنة ٥١٠ (١١١٥-١١١٦). وأول هؤلاء العمال هو المذكور في تلك الرسالة بكنيته (أبي السداد) الذي ورد على مراكش الخبر اليقين بموته كما تنص الرسالة على ذلك،

---

(١) انظر كوديرا: انحلال المرابطين ص ١٧٠، ١٧٦.

ويصرح الأمير بأنه لم يقر أبا السداد على ميورقة إلا بشكل مؤقت (إقرار منعة وفي سبيل قلعة) على ما تقول الر..الة وهو ما يمكن أن نفهم منه أن تعيين أبي السداد كان لغرض عسكري بحت، وتضيف الرسالة إلى ذلك (وغرضنا كان أن نولي عليها من يصلح من أعيان الرجال فإنها بلدة كبيرة تحتاج إلى من يسوس أمرها ويحوط أهلها)، ويبدو أن موت أبي السداد المفاجئ حمل أهل الجزيرة على أن يولوا بعده ابنه دون رجوع إلى أمر علي بن يوسف، وأن ابن أبي السداد قد أساء الحكومة وأوحش أهل الجزيرة وروّعهم حتى إن أمير المسلمين لم ير بأسًا في أن يلقبه في هذه الرسالة: (السفيه المعتوه) وأن يطالب عامله الجديد بأن يزيل الأثر السيِّئ الذي خلفه في نفوس الرعية حكم ابن أبي السداد.

وإذا قابلنا بين ما جاء في هذه الرسالة والقليل الذي نعرفه عن ولاة ميورقة قبل سنة ٥٢٠ فإنه بوسعنا أن نلاحظ تشابهًا له دلالته بين ما تذكره المراجع من حكم وانور بن أبي بكر اللمتوني وعسفه بأهل الجزيرة وما تشير إليه الرسالة من حكم ابن أبي السداد مما يجعلنا لا نستبعد أن يكون هذان شخصًا واحدًا، وإذا صح ذلك فإن الرسالة التي بين أيدينا قد تكون وُجِّهت إلى أبي بكر على بن ورقاء الذي كان آخر عامل على ميورقة قبل أن يُولِّى عليها محمد بن غانية. وربما كان من الأدلة على ذلك ما سبق أن ذكره ابن خلدون من أن وانور بن أبي بكر هذا أراد أهل الجزيرة على بناء مدينة أخرى بعيدة عن البحر فامتنعوا من ذلك فقتل زعيم هذه الحركة وترتب على ذلك ثورة أهل الجزيرة عليه وحبسهم إياه ومكاتبتهم الأمير في عزله عنهم [١]، ففي الرسالة ما يوصي بالإشارة إلى ذلك الحادث (واسع بحسن سياستك في استرجاع من خرج من جيرانهم واجتهد في صرفهم إلى أوطانهم حتى يكثر بفضل الله عددهم وينجبر بلدهم).

وفي نهاية الرسالة إشارة إلى الأسطول وضرورة اهتمام عامل الجزيرة به،

---

(١) ابن خلدون: عبر ١٦٥/٤، ٢٤٢/٦.

ويبدو أن مقر قيادة الأساطيل الأندلسية في ذلك الوقت كان مدينة دانية، وقد كان من الطبيعي بعد مهاجمة القراصنة الجنويين والبيزيين والقطلان للجزر الشرقية أن تهتم الحكومة المرابطية بزيادة قوتها البحرية وتشديد الحراسة على سواحل الأندلس وجزرها كما تدل على ذلك الفقرة الأخيرة من الرسالة.

الرسالة الثامنة عشرة

تدلنا هذه الرسالة على ناحية من نواحي حكم المرابطين للأندلس، إذ هي خاصة بتولية قاض لبعض أعمال البلاد، ونستدل من هذه الرسالة على أن حكم المرابطين كان - كما أشرنا إلى ذلك من قبل في هذه التعليقات - حكمًا ديمقراطيًا شوريًا إلى حد بعيد، فقد كانْ اختيار القضاة موكولاً إلى أهل البلاد نفسها لا فرضًا من أمير المسلمين عليهم، حتى حين قدَّم أهل البلد اسمي رجلين لكي يختار الأمير أحدهما آثر هذا ألا يقطع في الأمر وترك ذلك لأهل البلد حتى يقوموا هم بانتخاب واحد منهما، على أن ذلك لم يكن منه تفريطًا أو إهمالاً، إذ ينص في آخر الرسالة على أنه إن استمر بهم الخلاف ولم يستقروا على أحدهما فإنه سيرى نفسه مضطرًا إلى أن يضطلع بذلك مخرجًا الأمر عنهم.

كذلك تدلنا الرسالة على أن السلطة القضائية كانت تتمتع باستقلال كبير عن السلطة التنفيذية، ولو كان الأمر غير ذلك لترك الأمير مسألة اختيار أحد الرجلين لمنصب القضاء إلى عامله على البلد.

* * *

الرسالتان التاسعة عشرة والعشرون

ليس في هاتين الرسالتين أكثر من إعطائنا نموذجًا لكتابة اثنين من أعلام الأدب الأندلسي في هذه الفترة وهما أبو بكر بن القبطرنه والفتح بن خاقان، أما الأولى فإنها كما ذكر جامع الرسائل (في الحض على قتل الجراد) [1]، ومع ذلك فإن الكاتب يخصص جل الرسالة لإطلاعنا على مدى براعته اللفظية واقتداره على الأسجاع وتوليد الصور كأن الغاية منها هي إظهار افتنانه وسعة اطلاعه، أما الرسالة الثانية فهي من هذا الطراز وتزيد على هذه بما ملأ به ابن خاقان عباراتها من الملق والنفاق والتقرب إلى القاضي الذي وُجِّهت إليه الرسالة، وليس هذا غريبًا من ابن خاقان الذي كان متهمًا في دينه وخلقه، فهذا الأديب الذي نعرف عنه أنه لم يكن يستفيق من السكر نراه هنا يغدق الثناء على القاضي ويسأله أن يكفي المسلمين شر الخمر بعد أن (استحلّ حرامها واستسهل مرامها) ! على أن الكلمات تخونه وتكشف عن حقيقة شعوره فإذا بنا نراه ينطلق واصفًا الخمر مشبهًا كئوسها بالدر يحمل ياقوتًا- إلى آخر ما ذكر -

ولا غرو فهذان الكاتبان إنما هما من نتاج فترة ملوك الطوائف، وإذا كان ما كتباه يدل على تنطعهما وغلبة الهزل عليهما فإن (أدبهما) في الواقع لا يمثل لنا إلا نوعًا من الانحطاط الفكري والتكلف في الأسلوب، ولهذا فإن نصيبهما -

---

(١) أمدنا ابن القطان في كتابه (نظم الجمان) بأخبار وافية مفصلة عن إضرار الجراد بزرع الأندلس فيما بين سنتي ٥٢٧ و ٥٣١هـ. (١١٣٢-١١٣٦م.)، فقد تتبع أخبار ذلك في دقة بالغة .انظر الأوراق ٧٢ب، ٧٤ب ٧٨ب، ١٧٩)، وقد اختص بالذكر سنة ٥٢٩ (١١٣٤) إذ يقول في أخبارها: (ب ومحت الجراد ما علي الأرض من زرع وكلأ، وأمر الناس بالخروج إليها، فساقوا منها خمسة آلاف عدل وثلاثمائة عدلا، وما غاب عن العيون أكثر تركت في الموضع الذي قتلت فيه ولم تحمل (ورقة ١٧٧) ؛ ولسنا نستبعد أن تكون رسالة ابن القبطرنه المشار إليها هنا عن هذه المناسبة بصفة خاصة.

إلى جانب قلة قيمتهما من الناحية التاريخية - ليسا جديرين بأن يوضعا في النصوص الأدبية الأندلسية القيمة.

الرسالة الحادية والعشرون

هذه الرسالة هي الوحيدة التي لم ينص على كاتبها، وهي موجهة على ما يبدو من أمير المسلمين عليّ بن يوسف من حضرة غرناطة إلى عاصمة ملكه مراكش. وأغلب الظن أن علي بن يوسف وجّهها في إحدى المناسبات التي جاز فيها إلى الأندلس برسم الجهاد، إذ أنه يبشر المسلمين فيها بما قدّره الله له من انتصار على النصارى في بعض غزواته، ولهذا فهو يأمر بأن تقرأ على الجماهير في المسجد الجامع. وهو يذكر فيها أنه قد أرسل معها نسخة من رسالة أخرى كتبها (أبو عبد الله محمد بن يسير) في تفصيل هذا الفتح والحديث عن وقائعه، ويظهر من ذلك أن كتاب ابن يسير هذا قد وزعت نسخه على جميع أعمال البلاد المغربية والأندلسية حتى يقوم حكامها بقراءته على المسلمين في المساجد الجامعة، وهذا يدلنا على أن ذلك الانتصار الذي فتح الله به على أمير المسلمين في تلك الغزوة كان من الخطر بمكان كبير.

الرسالة الثانية والعشرون

هذه الرسالة الأخيرة لا ترجع إلى فترة حكم المرابطين كما سبق أن بينا. إذ أن كاتبها هو أبو حفص ابن برد المعروف بالأصغر والذي توفي في سنة ٤٤٥ (١٠٥٣)، كما أن معظم هذه الرسالة وردت فيما اختار ابن بسام من نثر ابن برد في كتاب (الذخيرة) [١]

---

(١) ق ١- ٢/٢٩-٣٠.

النصوص

١ - وكتب أبو عبد الله بن أبي الخصال:

(٧٦ أ) كتابنا - أبقاكم الله، وأكرمكم بتقواه، وعصم جانبكم وحماه، وتمم عليكم عوارف نعماه - من فلانة حرسها الله، وقبلُ ما وفد إلينا وورد علينا الفقيه الأجل المشاور أبو الوليد ابن رشد - أعزه الله بطاعته -، فبسط لدينا شأن تلك الجزيرة - كلأها الله - وجلاَّه، ووصف من حالها ما أصخنا له حتى استوفاه، وجال بميدان البيان أفصح مجال، وعرض الأمور في معرضها بأبلغ مقال، فأشفقنا - علم الله - كل الإشفاق، وتضاعف ما كان عندنا وكيدًا لصلة النظر والاشتياق، ولن نألو[1] جهدًا مبذولاً، وجِدًّا حفيلاً، وعزمًا لا نابيًا ولا كليلاً، فيما ندرأ وندفع، ونذود عن حوزة الملة ونمنع، وندأب لذلك (الدأب)[2] الحثيث، ونتبع القديم فيه بالحديث، وننصب له النصب الذي ليس حبله السحيل ولا النكيث، ولا يشغلنا عنه شاغل وإن أهمَّ، بل نصرف نحو جنابكم الحزم الأتمَّ الأهمَّ، وجهد الكفاية ما دهم حادث وألمّ، فاستشعروا أن أموركم إزاء ناظر اهتبالنا، ومن آكد موكدات اشتغالنا، وقد عاين الفقيه الأجلّ المتقدم الذكر حقيقة الأمر، وسيبلغكم ذلك عنه، فلا تكونوا في ريب منه، والله تعالى يعيننا على ما نحن بصدده، ويمنحنا من تأييده ما يعز الإسلام ويقيم من أَوَدِه، بحوله وطَوْله، وعدله وفضله.

٢ - وكتب عن أمير المسلمين:

(٧٦ ب) كتابنا أعزكم الله بتقواه، وكنفكم بظل ذراه، ووفَّر حظوظكم من حسناه، من حضرة مراكش - حرسها الله - يوم الاثنين منتصف شوال من سنة

---

(١) في الأصل: نألوا.

(٢) إضافة يقتضيها السياق.

سبع وخمسمائة بين يدي حركتنا يَمَّن الله فاتحتها وعقباها، وقد قرعنا الظنابيب، وأشرعنا الأنابيب، وضمرنا اليعاسيب[١]، واستنفرنا البعيد والقريب، مستشعرين إخلاص نيه، وصدق حمية، في نصر دين الإسلام، ومنع جانبه أن يضام، أو يناله من عدوه اهتضام، ونحن إن كنا قد بالغنا في الاحتشاد والاستعداد، واستنهضنا من الأجناد والأمداد، ما يربى على الحصى[٢] والتعداد، فإنا نعتقد اعتقاد يقين، بقول رب العالمين، في كتابه المبين لرسوله الأمين ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان :٧٧][٣]. إن استنفار الدعاء، واستفتاح أبواب السماء بخالص الثناء - من أنفع الأشياء، وأنجع الدواء فيما أعضل من الأدواء، وإن الدعاء إذ وافق إجابة يمضي حيث ينبو الحديد المذرَّب، ويكبو العديد المتهيب ؛ ولذلكم ما رأينا مخاطبتكم مستنفرين دعاءكم وأدعية[٤] من وراءكم من خيار المسلمين وصالحي المؤمنين، لأن يمدنا الله بالنصر والتمكين والملائكة المؤمّين، ويقطع بكل من يريد القطع بنا عن حماية الدين، ويرفع رأيه في خلافنا من المفسدين المعتدين، فإذا وصل إليكم خطابنا هذا أعزكم الله فامتثلوا مذهبنا فيه، وأشيعوه عند الخاص والعام، ليرفعوا أيديهم بالتضرع في أوقات المناجاة والقيام، ويجمعوا بين تعفير الجباه، وتحريك الشفاه، تحت جنح الظلام، ويستوهبوا الله من إعزاز جانبنا، وإذلال مجُانبنا، مالهم فيه أوفر الحظوظ والأقسام، (١٧٧) وهو الكفيل بإنجاز ما وعد به من الإجابة، لا إله إلا هو ذو الجلال والإكرام، والطول والإنعام، والسلام.

٢ - وكتب عنه الى ابي بكر ابنه:

كتابنا يمَّن الله أنحاءك ومذاهبك، وأمّن أرجاءك وجوانبك. وأسمى بتقواه أحوالك ومراتبك، من حضرة مراكش - حرسها الله - يوم الأربعاء السابع

---

(١) قرع الظنابيب كناية عن الإسراع في الأمر، والأنابيب: الرماح، ويقصد باليعاسيب: الخيل.
(٢) الحصى أي العدد الكثير.
(٣) سورة الفرقان، آية رقم ٧٧.
(٤) في الأصل: وأو ية.

والعشرين من صفر سنة عشرين وخمسمائة، وقد وردنا في اليوم المذكور كتابك الأثير مضمَّنًا صفة الحال الجارية، بحكم الأقدار النافذة الماضية، وألا صارف لما أمضاه، ولا معقب لما شاءه وقدره لا إله سواه، والله جل ذكره المليء بالخير، أجمل الصنع، وإصارة المسلمين في كنف الحماية والمنع، والذي أتيته وتوخيته من الثبوت [١] والوقوف، والعمل البادي الصواب والشفوف، مشكور لك محمود، فَلْيَطِرْ عليك منك جَدٌّ موجود، واعتمال لا يكون عليه لمستزيد مزيد، فهذا وقت بذل النفوس، فضلاً عن الأموال، التي تدخر لحاجات الرجال، وهو متعين على الحشوة والكافة، فكيف علينا أو على من كان منا أو منتسبًا إلينا . . . فجرِّد عن ساعد اعتزامك، واستنفد ما يبقى لك ذكرًا، ويذخر أجرًا، متعاقب أيامك، فيجوز لك خير الدارين، ويجوز شرف المنزلتين، وقد رأينا - والله الموفق للصواب - أن نقدمك [٢] على جميع الجيوش بتلك الجزيرة - عصمها الله - عمومًا يشمل من كان هناك منها، ومن وصل من هذه العدوة - حرسها الله - إليها، وخاطبنا عمالك بالسمع منك والطاعة لك، وأن يطابق كل واحد منهم رأيك، ويوافق عملك، وليست الحال الآن كالحال قبلُ، فإنها الآن يتنوط بك (٧٧ب) الدِّقُّ منها والجل، والكُثر والقُلّ، فقف إزاء العدو، وصِلْ في المدافعة والمواثبة الرواح بالغُدُوّ، ومل حيث مال، وصل الاجتهاد والاعتمال، وتشاور مع القواد، وأهل الرأي من الأجناد، وابعد عن الاستئثار والاستبداد، وأيد في جميع الأنحاء، وانفذ نفوذ السهم المسدد في غرضه بعد تردد الارتياء، وقدم الاستخارة لله تعالى على كل عمل مالكِ الأشياء، والمتدارك في اللأواء، ورتب الناس في مراتبهم وأنزلهم أمكن منازلهم، واعلم قدر هذا الذي نطناه وعصبناه بنظرك، فإنه عظيم جدًّا، ويتعين

(١) في الأصل: البيوت، ولعلها كما أثبتنا.
(٢) في الأصل: يقدمك.

عليك أن تقدره حق قدره، وتستفرغ فيه جهدًا وجدًّا، ووسع صدرك، وَابْنِ على الصبر والأناة أمرك، واحتمل ما تكرهه، لتنال من مغبة ذلك ما تحمده، ولا غاية بعد ما لدينا من تطلع وكيد إليك، وإن أمكنك أن تُعَرِّفنا مع الأيام بالأنباء، فصل بذلك معهود الاحتفاء، اِطَّلع الله على السراء، وتكفل بقمع الأعداء، بمنه.

٤ – وكتب عنه الى الوحيدي بوصيه:

كتابنا كتب الله أعمالك مبرورة، ومساعيك مشكورة، وعرَّفك الآلاء موفورة، من حضرة مراكش –حرسها الله– لخمس بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وإن من رتب من الأمر حيث رتبت، وحسب من القيام بالمهمّات حيث حسبت، لم يسعه أن ينام عن قضية تجرى ببلده ولا أن تدركه غفلة عن تفقد ما تحت يده، وقد تجمعت الآن بهذه الحضرة عصائب الشاكين، وكثرت أرفاع [(١)] المتظلمين، وكان من أمورهم بيِّن ومشكل، (٧٨أ) وفيهم محق ومبطل، فلم يَخْلُ ما كانوا يجيئون به من قول مزور، وباطن في صورة الحق مصور، وعندما التبس الكذب من ذلك بالصدق، والتّف المبطل بالمحقّ، صددنا أرفاعهم عن الوصول، وصرفنا دونها وجه القبول، وأوعزنا إلى جماعتهم لما خفناه من تلبيسهم في الأمور، وشوبهم المباح بالمحذور، بأنّا لا ننظر لأحد منهم في حق يدعيه، ولا أمر يوجبه أو ينفيه، إلا بعد أن يأتي ببيان من قاضي بلده، وكتاب ينطق عن صحة ما بيده، فانصرفوا وفي نفوسنا – علم الله – من قِبَلِهِمْ ما يشق حمله، ولا يخف مثله، فإنه لا يمكن إلا أن يكون فيهم الصادق البر، والرجل المضطر، لكن الخيرَ أردنا والبر قصدنا، ولما كان هذا وجب أن نلتمس لأمورهم وجهًا يتوصل به إلى معرفة الصحيح من السقيم،

---

(١) جمع (رفع) وكان يطلق في المغرب والأندلس على الرسالة التي ترفع إلى العامل أو الأمير متضمنة طلبًا أو شكاية. انظر ما كتبه عن هذا اللفظ دوزي في (ملحق القواميس العربية) ١/٥٤٢.

والمعوجُّ من القويم، فوكلنا ذلك إلى قضاة البلدان، وألزمناهم القيام به والفحص عنه مع الأحيان، لأن موضوع القضاء إنما هو لرفع المشكلات، وتمييز الحقائق من المتشابهات، والفصل بعد التبرم[١] في الدعاوى والمنازعات، ومع هذا فنقول إن هؤلاء الرافعين لو وجدوا في بلادهم إشكاءً[٢] وألفوا عند متقلدي الأمور لرد ظلاماتهم وفاء، لما تجشَّموا إلينا بعد الشقة، ولا تحمَّلوا نحونا عظيم المشقة، ولولا أنَّا لا نخليهم من التعسُّف، وسوء[٣] التكلف، لشددنا في جهة القضاء عارضة الكلام، ولثقلنا عليهم[٤] وطأة الملام، وقد قلدناك تقليدًا تامًا أن تنظر بجهتك من شكاوى العامة في اللطيف والجليل، وسمناك القيام بالخفيف منها والثقيل، فتفقد ما قبلك حقَّ تفقده، (٧٨ب) وتعهده[٥] أحفى تعهده، فإنك إذا أمعنت التطلع، وأدمنت إلى جانب الرعية التلفت والتسمع، لم يشذ عن علمك ما يجري ببلدك لاجتماعه وانحصاره، وتقارب ما بين مسافاته وأقطاره، وإن حقًّا على الجار أن يفرِّج ضغطة جاره، فاستكشف - وفقك الله - الأحوال وتعرَّفْ صورها، واستعلم مع الرعية شأن الرعية وخبرها، فكل ما رفعته إليك من أحوالها، وتظلمت فيه من عُمَّالها، أجريته مع الحق كيف جرى، وعممت بالنظر ولم تخصّ قضية دون أخرى، فكلٌّ بك معصوب، وأنت عنه محاسَبٌ وبه مطلوب، ومدار هذا الأمر اختيار الحكام الذين استَنَبْتَهُمْ في أقطارك القاصية، ونصبتهم في الجهات النائية[٦]، فشرطهم الثقة والديانة، والصون والأمانة، فإنهم إذا كانوا بهذه الصفة جرت أمورهم على سبيلها القاصد، وسيرها الراشد، وأمنت في جهات

---

(١) كذا في الأصل، وربما كانت تحريفًا للفظ (التفهم).
(٢) أي رفعًا للشكوى وإزالة لأسبابها.
(٣) في الأصل: وسواء، ولعلها كما أثبتنا.
(٤) كذا في الأصل، وربما كان الأصوب أن يقول (عليه) إلا إذا كان يعني بهذا الضمير (القضاة).
(٥) في الأصل: وتعاهده.
(٦) في الأصل: التابية.

الرعاية والأحكام، وأمِنًا بك فيها من اللبس والمداخلة مع الأيام، فلا تقلد عملك إلا معروفًا بلطف النفس والعفاف، ونقيًّا يقنع بالكفاف، ويتنزه عن الإسفاف، وتحفظ من كل منهوم لا يشبع، ومُسِفٍّ لا يتورع، فالحريص أصمّ أعمى لا يرى ولا يسمع، وبعد توليتك إياهم فأشرف عليهم إشرافًا يتعقب أحوالهم، فمن رأيت منه [1] جنفًا، أو نقص عليك من أطراف الحق طرفًا، صرفته مذمومًا، وأخرته ملومًا، فتفقد هذا من أمورهم، فإنك مضطر إليه في الديانة، وفيما يباشرونه من أمور الرعاية التي لا ترضى بهضمها، ولا تقرُّ أحدًا على ظلمها، ومما نعيده (٧٩ أ) ونتقدم [2] إليك فيه أمر اللوازم الجارية هناك أن تتصفحها وتلمحها، فما لم يكن منها في عهودنا موجودًا، ولا من قبلنا محدودًا ولا في مصالح المسلمين معدودًا، فهو رد على كل والٍ رسمه، ومصروف على كل من ألزمه، لا يُؤدَّى منه نقير، ولا يُحْمَل منه فتيل، وأي عامل من عمال الرعية قامت الشهادة عندك بتعديه، وعلمت صحة استهدافه وتصديه، فأْنهِ أمره إلى صاحب البلد مستعمله ومُوَلِّيه، وأشعره بما ثبت عندك فيه، فإن غل يد أذيته، وأنفذ عزله عن رعيته، وإلا فَأَخِفَّ [3] ذلك إلينا في سائر ما يتوقف لديك من الأمور التي تقصر عنها يدك، وتنقطع دون النفوذ فيها غايتك وأمدك، لينفذ من عندنا ما يقف منازعك عنده، ويسهل لك كل صعب بعده، ومما تتفقده من أحوال الرعية ما يُؤخذ به الحاضر عن الغائب، ويُطلب به الباقي بعد الذاهب، فهذا الصنف أيضًا من الظلامات تبطله وترد حكمه، وَتُعَفِّي أثره ورسمه، وأمر الزكوات على تباينها في الصفة، وأنواعها المختلفة، تجري على موجب فريضتها، وتوقف على حد شريعتها، لا تحرّف ولا تبدّل، ولا تصرف عن جهتها ولا تعدل، هذه - أعزك الله - أمثال مضروبة، وهدايات منصوبة،

---

(١) في الأصل: منهم، ولعل الصحيح ما أثبتنا.

(٢) هذه الكلمة مكررة في الأصل.

(٣) أي فعجّل بإبلاغه.

وقوانين موضوعة، وأعلام على طرق الحق مرفوعة، قد تبرأنا إليك من وزرها، وتخففنا بإسنادها إلى نظرك من إصرها، وفي أكثرها كانت الأرفاع تَرِدُ، وعصائب المتظلمين تحتشد، وأنت إذا كشفت غيبها[1] ونفضت طرقها، وأعطيتها من بحثك (٧٩ب) وتأمُّلِكَ حقها، ارتفعت الشبهة، وانزاحت العلة، وتوفرت على المسلمين الرحلة، وهدأت الرعية وتفرغت لأشغالها، ولزمت صالح أعمالها، فانظر في هذه الأمثلة والجمل إلى أقصى ما ينقسم إليه أقسامها، وقفها على حد ما تقف عليه الشريعة وأحكامها، واكفنا ما استكفيناك، وانهض نهوض المستقلّ بما حَمَّلْناك، وأي عذر لك وقد شددنا من أزرك، وعضدنا من أمرك، وإنَّ تَطَلُّعَنا لوكيد لما نجدده عندك من النفوذ. هذه الوصايا الجامعة، والحجة البالغة، وستبلغنا الأنباء، ويتصل بنا الثناء، وبعد ذلك الثواب والجزاء. لا إله غيره والسلام. أعزك الله ليُقرأ الكتاب على الكافة بالمسجد، فإن فيه زجرًا للمعتدين، وأخذًا فوق أيدي المفسدين، وبلاغًا يحمله ويصيره الراكب، ويتلقاه عن الشاهد الغائب إن شاء الله تعالى.

٥ - وكتب ابو بكر ابن القصيرة عنه موصيًا:

كتابنا أبقاكم الله، وأسبغ عليكم نعماه، وآواكم إلى كنفه المنيع وحماه، من حضرة مراكش حرسها الله، ونحن على أولنا يعلم الله حرصًا على ما ينفعكم، وجريًا إلى ما تطمئن به نفوسكم، ويتمكن تمهيدكم وتودعكم، حسبما يقتضيه حق الله تعالى علينا في رعاية من استرعيناهم، وحياطة من أمرنا بين يدي نظرنا نأمرهم وننهاهم، إلى مزية بينة لكم مما تقرر عندنا من صحة ولايتكم وصدق صاغيتكم، واستواء سريرتكم في طاعتنا وعلانيتكم، والله يثبت أقدامكم في مواطن الرضا، ويهديكم السبل المفضية بكم إلى الحسنى بمنّه. ومما نوصيكم به ونحثكم عليه - وهو - ولا (٨٠ أ)توفيق إلا بالله - مجمع صلاح دينكم

(١) في الأصل: عيبها.

ودنياكم، وداعية انتظام أموركم في أسلاك مناكم- تقوى الله، والائتلاف على الرضا والكون في ذات الحق إخوان وداد، لا ينطوي بعضكم لبعض على حزازات ولا حرارات أحقاد، وأن تكونوا لواليكم أبي فلان - أبقاه الله وأعزه بتقواه - على طويات سليمة، وطريقة له [١] في الانصياع[٢] له والاقتداء به قويمة، فيما ذهب إليه مما فيه حماية حوزتكم، وصيانة حريمكم، وشدّ أطرافكم، وسدّ ثغوركم، فوالوه على توليه، ولتكن أيديكم مع يده على سنن واحد فيه ولا تنكلوا [٣] في حد من حدود ذلك عنه، ولا تتسللوا [٤] لواذًا منه، ولن تزالوا - ما سلكتم هذه السبيل، وتلوتم هذا[٥] الدليل - على حال ترضي أولياءكم، وتشجي أعداءكم، إن شاء الله، وهو هاديكم إلى سبيل الخير، ومرشدكم إلى قصد الصلاح، لا رب سواه، والسلام.

٦ - وكتب أيضًا في الوصاة:

كتابنا أبقاكم الله، وأكرمكم بتقواه، ويسّركم لما يرضاه، ووفَّر حظوظكم من حسناه، يوم كذا من عام كذا، ويتأدّى إليكم من قبل واليكم، وخليفتنا فيكم، وهو النائب عنا في تدبيركم، وإقامة أموركم، وسياسة صغيركم وكبيركم، ليس لأحد معه في شيء من ذلك يد، ولا مع مشهده إلا بإذنه وإباحته مشهد، قد فوضنا إليه في ذلك كله، وأفردنا النظر في دقه وجله، وكثره وقله، ولن يألوكم نظرًا يصلح أحوالكم، وينجح أعمالكم، ويحسن به الله عقباكم ومآلكم، وهو بلساننا متكلم، وعمًّا في ضميرنا مترجم، وفي قالب[٦] رأينا مُفْرَغٌ، وعلى منواله مُسَدّ ومُلْحِم، ما أمضاه أمضيناه، وما وقفه وقفناه، فاسمعوا منه في ذات الله (٨٠ب) وأطيعوه، ولا تخالفوه فيما يراه من مصالحنا ومصالحكم ولا

---

(١) هذه الكلمة تبدو زائدة لا محل لها هنا.

(٢) في الأصل: الانطياع.

(٣) في الأصل: تتكلوا.

(٤) في الأصل: يتسللوا.

(٥) في الأصل: هذه.

(٦) في الأصل: قلب.

تعصوه، وما دعاكم إليه فابتدروه، وما حَدَّ لكم اجتنابه فاجتنبوه، وإياكم وما يسخطه [(١)] من التشغيب عليه فيما ينتحيه، والفقيه الأجل القاضي أبو فلان يصل في ذات الله على سنن الحق يده، ويقصد مقصده، وكذلك أولو الرأي من جميعكم يكون معه جماعة، وعلى حبل ذراعه طاعة، ويهدون إليه ما يغيب عنه من أمور سائركم، ويطلعونه على ما يخفى عليه من أحوال أكابرهم وأصاغركم، حَسْبُنا هذا توصية، وتذكرة جامعة مستوفية، ولا حجة بعدُ لمن جار عن السنن، وخالف الواجب عليه المتعين، ولا يَلُمْ من خالف عهدنا، وتعدَّى قصدنا، إلا رأيه ونفسه الأمَّارة بالسوء، وبالله التوفيق، والسلام.

٧ - وكتب أيضًا في المعنى:

كتابنا أبقاكم الله وسلمكم، وتولاكم وأكرمكم؛ ووقاكم الأسواء وعصمكم، من محلتنا يَمَّنها الله بظاهر قرطبة - حرسها الله - في يوم كذا من شهر كذا عام كذا، ويتأدى إليكم من قبل واليكم وخليفتنا فيكم أبي فلان أبقاه الله، وأعزه بتقواه، وهو النائب عنا في تدبيركم وإقامة أموركم، وسياسة صغيركم وكبيركم، ليس لأحد معه في ذلك يد، ولا مصدر ولا مورد، ولا مقام ولا مقعد، قد فوضنا إليه في ذلك كله، وأفردناه النظر في دقه وجله، وكثره وقله، وحكمناه في جميعكم: يثيب من استحق الثواب، ويعاقب من استحق العقاب، ويكرم أهل الإحسان، ويهين من أساء أشد الهوان، ويمتسك منكم بمن أراد، ويسرِّح من رأى تسريحه، ويبعد من كان سبيله الإبعاد، وما فعل من ذلك كله (٨١ أ) فنحن فعلناه، وما قال فيه فكأنّا نحن قلناه، ولا نوقف ما أمضاه، ولا نمضي ما وقفه وأباه، ولا نرى في أحد منكم إلا ما يراه، ولا نتولاه - كائنًا ما كان - إلا أن يتولاه، ولا نرضى من أحواله ما لا يرضاه، بلساننا يتكلم، وعَمَّا في جناننا يترجم، وعلى ما يوافقنا يسدي ويلحم، وإلى ما يرضينا

(١) في الأصل: يستخطه.

يمضي ويتقدم، فاسمعوا وأطيعوه ولا تخالفوه، فلن يعدو وجه القصد ولا تعصوه، ولا تألوه انقيادًا وطاعة، ولا تدخروا عنه فيما يستعملكم فيه جهدًا ولا استطاعة، و إياكم والخوض في أمر جعلناه إليه، واحذروا من تعقب ما صغر أو كبر عليه، وأضربوا عنه، ودعوا ما لا يعنيكم منه، وليرشد خياركم شراركم، وليبصر كباركم صغاركم، وحسبنا هذا إنذارًا لكم، وإعذارًا إليكم، ولا عذر بعدُ، ولا يَلُمْ من تعدّي إلا نفسه، وبالله التوفيق، والسلام عليكم.

٨ - وكتب عنه أيضًا:

كتابنا أطال الله في طاعته مدتك، وأدام بتقواه حرمتك، وأفاض نعمتك، وتولى توفيقك وعصمتك، من حضرة مراكش حرسها الله، وقد علمت محل ذي الوزارتين الأجل الفقيه الأفضل ولينا أيده الله بتقواه من صدق ولايتنا، ومكانه من حسن رعايتنا، وأنه ممَّن يُستشفي برأيه، ويُهتدى بهديه، ويُستثمر النجح من سعيه، ويُتعرف السداد في رأيه، فينبغي لك أن تشاوره في كل ما تأتي وتذر، وتورد وتصدر، وتقدم وتؤخر، فلن تعدم منه مشيرًا نصيحًا، وظهيرًا مشيحًا، وطبيبًا للعلل مريحًا، ورأيًا خالصًا صريحًا، فامتثل في ذلك عهدنا، ولا تتعدَّ فيه حدَّنا، وتوخَّ معه من مصالح البلد ما (٨١ب) يحسن موقعه عندنا، ويقتضي شكرنا وحمدنا إن شاء الله، والسلام.

٩ - وكتب عنه:

كتابنا أبقاك الله، وأعزك بتقواه، ويسَّرك لما يرضاه، وجَنَّبك ما يسخطه وينعاه، من محلتنا يمَّنها الله بظاهر سبتة حرسها الله، يوم الاثنين منسلخ ذي الحجة سنة ست وخمسمائة عند ما اتصل بنا وصح عندنا أن الفقيه الجليل الحافظ قاضي القضاة بالشرق أبا[1] فلان أبقاه الله وأعزه بتقواه - قد ضاق صدره، وقلَّ صبره، بتعصب أقوام هناك على اعتراض أحكامه، والشَّرَق

---

(١) في الأصل: أبي.

بمكانه، ويزعمون أن شان الحق غير شانه، وشتان ما بينهم وبينه في الفضل والدين والسَّنَن المستقيم، فأنكرنا ذلك أشدَّ النكير، واعتقدنا فيهم إن لم يكفّوا عنه أبلغ التغيير، وما أظن رأس هذا الحال، وأصل هذا الخبال، ينبغي حتى يقع في خطتي لا حظَّ فيهما لمختار: إما الإخمال والإقعاد، وإما الإخراج إليَّ حيث رأينا من البلاد، فقد برَّح بنا هذا الأمر، وأضرَّ فيه الحلم والصَّبر، فإذا وصلك كتابنا هذا فابذل جهدك في حسم هذا الداء قبل أن يقابله [1] بمر الدواء، وابلغ من حماية جانب الفقيه الأجل القاضي المذكور أعزه الله إلى الغاية التي لا مزيد عليها ولا أمد وراءها، واعلم أن ستراعي هذا الأمر أتم مراعاة، وتحامي دونه أسدَّ محاماة، إن شاء الله، والسلام.

١٠ - وكتب أيضًا:

كتابنا أبقاكم الله، وأكرمكم بتقواه، ويسَّركم لما يرضاه، ووفَّر حظوظكم من نعماه وحسناه، من حضرة مراكش حرسها الله في تاريخ كذا عندما ورد كتابكم الأثير ووقفنا على معانيه، (٨٢أ) وأحطنا علمًا بمجمل قولكم ومفصله فيه، ونحن بما سبق من انقطاعكم إلينا وتأميلكم لنا عارفون، وبحقه - مراعاةً لكم وتحفِّيًا بكم - مُوفون، لا نغفل مرادكم، ولا نتواكل فيما يقوي أعضادكم، ويوهن قُوى مَنْ كادكم، إن شاء الله عز وجل، وهو وليُّ أحوالكم يصلحها، وأعمالكم ينجحها لا رب سواه، وقد أنفذنا إليكم صكًّا يصلكم صحبة جوابنا هذا تحملون فيه على ما تضمّن كتاب بيعتكم، لا يخالف بكم عنه، ولا يخرجون في دقيق من الأمور ولا جليل عن سبيله، والله وليُّ جانبكم يحميه، وما فيه مَزَاحُ عللكم يُسَنِّيه، بمنّه ويمنه، والسلام.

١١ - وكتب أيضًا عنه:

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه، واستعملكم فيما يرضاه، وحملكم على

---

(١) لعل الأصح: نقابله، أو: يُقابل بصيغة المبنى للمجهول.

أقرب سبيله إلى حسناه، من حضرة مراكش حرسها الله، عقب ذي الحجة سنة تسع وتسعين وأربعمائة عن أحوال سامية، وأعمال على سوقِ النجاح قائمة ونامية، والحمد لله رب العالمين، وقد وردنا كتابكم الأثير من قِبل الفقيه الأجلّ أبي فلان، والفقيه القاضي أبي فلان، والفقيه أبي فلان وسلّمهم، فوقفنا على ما وعاه، وأحصينا ما أودعتموه إياه، ولم يمر على سمعنا فصلٍ من فصوله إلا تأملناه، وخرج لنا مناولوه - أبقاهم الله - عَمَّا كان لديهم وأبْدَأوا وأعادوا فيه ونحن مصغون إليهم، مقبلون عليهم، وقد كان الأمير أبو الطاهر أخونا الأعز علينا - أدام الله عزه - تقدم لنا بين يدي ذلك بجلاء تلك الأحوال في مناصّها، وعرض ما تستدعيه من الأعمال عامّها وخاصّها، وما كنا بذلك جاهلين، ولا عنه غافلين، وإنَّا بما قبلكم لمهتبلون، وإلى ما يلمُّ الشعث ويرمُّ المتكث لديكم ناظرون، وفيما نرجو به الصلاح الشامل لكُم عاملون، ويعلم الله الذي لا تخفى عليه خافية، ولا تنطوي دونه سريرة ولا علانية، (٨٢ب) ولا تفوت إحاطته قاصية ولا دانية - أنا لا نألو من قلّدنا الله أمورهم من المسلمين نصرة، ولا ندخرهم - حيث كانوا - نظرًا فيما يحوطهم وعملاً بما يصلحهم قدرة، وحسبنا الله معينًا بأعباء ما حملناه، ومنتهضًا إلى ما يقتضي وفور الحظ من قبوله ورضاه، ولا معين غيره ولا منتهض سواه، وها نحن - أبقاكم الله - في تلافي ما أشرتم إليه آخذون، وعلى ما يسد الخلل ويريح العمل عندكم عاطفون، وبه - دون كلّ مُهِمّ - مبتدئون، ولا عمل لنا بعد من سميناه من أعلامكم - أبقاهم الله - غير ذلك: إليه نغدو ونروح، وبه نقوم ونقعد، وعمّا قليل ينصات لكم الأمل، ويفضي إليكم بما استدعيتموه العمل، إن شاء الله، وعند أعيانكم المتقدمي الذكر أبقاهم الله، وتولاهم وإياكم بحسناه في بسط ما قبضناه، وتفصيل ما أجملناه، بما يوردونه عليكم، ويلقونه حسبما تَلَقَّوه إليكم، فاسمعوه منهم، وعوه عنهم، واسكنوا إليه، واطمئنوا به، والله وليّ التأييد، والمليّ بالصنع الحميد، لا إله إلا هو عزَّ وتعالى، والسلام.

١٢ - وكتب أيضًا عنه:

كتابنا أطال الله فى طاعته عمرك، وأعز قدرك، وأجرى على ما تتخير وحسبما تؤثر أمرك، من فلانة سنة كذا، عن أحوال صالحة، وأعمال مع النجاح غادية ورائحة، والحمد لله رب العالمين، وقد وردنا كتابك الأثير المؤرَّخ بمستهل ذي القعدة الموفى بين يدي الشهر المذكور، فاجتليناه وتصفحناه، وأتينا على مجمل ومفصّل ما وعاه ولم نتجاوز حرفًا إلى ما بعده حتى تأملناه، وأحطنا علمًا بفحواه ونجواه، وألقى إلينا الأمير أبو الطاهر أخونا الأعز علينا الأجل لدينا، أدام الله عزَّه، على ما يتأدَّى إليه بطول المشاهدة من أمور تلك الجهات فتوسَّمناه، وصرنا - علمًا به وتمثّلاً له - كأنَّا قد باشرناه وعاينَّاه، وتلاه بمثل ذلك أبو عبد الله محمد (٨٣أ) بن أبي (بكر[١]) أبقاه الله، ثم أصغينا إلى الأعيان الجلة أعلام حضرة بلنسية أدام الله حراستها وأبقاهم، والواردين معهم من تلقاء يحيى بن تاشفين ومحمد بن تومرت سلمها الله وأكرمها[٢] بتقواه، فخرجوا إلينا عما كان عندهم، وجدُّوا في بيانه لنا وجلائه علينا جدهم، وكل ذلك وعينا دقه وجله، وتلَّينا وعره وسهله، ويعلم الله عز وجل أنا بأحوال تلكم الجهات مهتبلون، ولمجاري الأمور بها مخيّلون، ولارتباكها بما أحاط بها من طوائف الأعداء متأملون، وإلى كل ما عسى أن تنحى به عليها المخالب ناظرون، لا يخفى علينا شيء من ذلك، ولا يزال فكرنا يطلع من تلك الثنايا ويتعسَّف تلك المسالك، ومالنا - والله الشاهد - إلا النظر فى كل ما تتمهد به هناك الأوساط وتحتمي الأطراف، وتتحصن الغِرَّات ويرتفع المخاف، إن

---

(١) في هذا الموضع بياض بالأصل، وقد سبق أن أشرنا عند التعليق على هذه الرسالة (ص ١٤٩) أننا نرجح أن يكون تمام لاسم (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن تاشفين اللمتوني) الذي كان ممن تولوا منصب القيادة في منطقة شرق الأندلس في هذا الوقت، وقد سقنا حججنا على ذلك في موضعه.

(٢) كذا، ولعل الصواب (سلمهما الله وأكرمهما).

شاء الله تعالى، فاعلم ذلك العلم اليقين، واستوضح حقيقته كما تستوضح الصبح المبين، وها نحن فيه آخذون، وبه عاملون، وإلى الله عز وجل نسند فيما نحاول وبه نستعين، وأنت - أبقاك الله - في تلك السبيل بمثابة برٍّ، وعلى مظنة أجر، فاستقبل في أعمالك وجه الله، واعتمد مصالح المسلمين في كل ما تتولاه، والله يصل يدك، ويسهّل مقصدك، ويسعد يومك ويجعل أسعد منه غدك، بمنّه ويمنه. وقد ذكر لنا أبو فلان حسن مجراك وجميل مكارمتك له وأتبع ذلك شكرًا جزيلا، وأضاف إليه حمدًا عريضًا طويلاً، وما فعلت معه - أبقاك الله - فمعنا فعلته، وما أجملته لديه فلدينا أجملته، وإنا لشاكروك على ذلك كشكره، وناشرو محاسنك نحو نشره، وقادرو معتقدك المبرور فيه وفق قدره، والله يبارك لنا فيك، ويجعل عليك واقية تقيك، ولا يخليك من التوفيق في جميع مناحيك، إنه على ما يشاء قدير، والسلام.

١٢ - وكتب عنه أيضًا:

(٨٣ب) كتابنا أبقاكم الله وسلمكم، ووقاكم الأسواء [(١)] وعصمكم، وتولاكم بإحسانه وأكرمكم، من حضرة مراكش حرسها الله يوم الأربعاء من محرم سنة خمسمائة، ونحن نوصيكم بتقوى الله تعالى واعتماد ما فيه الرضا، واجتناب ما يخل بمن أتاه في الدنيا والأخرى، وأن تكونوا لواليكم أبي محمد عبد الله بن محمد [(٢)]- أبقاه الله وأعزه - على طاعة صحيحة، ونفوس محضة صريحة، ما أمركم به أتيتموه، وما نهاكم عنه تركتموه، لا تختلفون في حال يأتيها من مصالح المسلمين ومضار المشركين عليه، ولا تتلكئون دونه في سهل ولا وعر عَمَّا ينوبكم إليه، وحسبنا هذا بيانًا لكم، وتقدمًا بالوصاة إليكم، فكونوا من القبول والاحتمال على الجنس الجميل في الحد الذي يكون عليه من

(١) في الأصل: الأسماء.

(٢) ذكرنا في التعليق على هذه الرسالة (ص١٥٢) أن الأرجح هو أن يكون المقصود(أبا محمد بن فاطمة) القائد المرابطي المشهور).

يشفق على حاله، ويجري إلى ما فيه حسن عاقبته ومآله، وما بلغنا عنكم إلا خير، لكن أردنا التأكيد، والله وليٌّ التسديد، والمليٌّ بالصنع الحميد، لا إله إلا هو، والسلام.

١٤ - وكتب أبو القاسم بن الجد عن أمير المسلمين يستدعي الكاتب ابن أزرق للكتابة:

كتابنا أبقاك الله، وأعزك بتقواه، ويسَّرك لما يرضاه، وأسبغ عليك عوارف نعماه، من حضرة مراكش حرسها الله في الثالث عشر من محرم سنة أربع عشرة وخمسمائة، وقد ذكر لنا وقدر قِبَلَنا من زكاء خلالك، واعتدال أحوالك، ما بعث على استجلابك واستكتابك، ودعا إلى استقدامك واستخدامك، فإذا وصل إليك كتابنا هذا فانظر في الحركة نحونا والنقلة، واستشعر الخير والخيرة في الرحلة، واحفز نفسك في الوصول إلينا، والقدوم علينا، إن شاء الله.

١٥ - وكتب في الرفق بالرعية[١]:

(٨٤أ) كتابنا أطال الله في طاعته عمرك، وأعز بتقواه قدرك، وشدَّ فيما تتولاه أزرك، وعضدَّ بالتوفيق والتسديد أمرك، من حضرة مراكش حرسها الله، وقد رأينا والله وليٌّ التوفيق، والهادي إلى سواء الطريق، أن نجد عهدنا إلى عمالنا - عصمهم الله - بالتزام أحكام الحق، وإيثار أسباب الرفق، لما نرجوه في ذلك من الصلاح الشامل، والخير العاجل والآجل، والله تعالى ييسر[٢] لما يرضيه من قول وعمل بمنّه، وأنت - أعزك الله - ممن يستغني بإشارة التذكرة، ويكتفي بلمحة التبصرة، لما تأوي إليه من السياسة والتجربة، فاتخذ الحق

---

(١) لم ينص جامع الرسائل على اسم من وُجِّهت إليه هذه الرسالة ولا تاريخها، على أن هذه الرسالة وردت في مرجعين آخرين هما (قلائد العقيان) لابن خاقان ص ١١٣ و (البيان المغرب) (الجزء المرابطي) ورقة ٢٨، ومن هذين المرجعين نعرف أنها وُجِّهت إلى أبي محمد عبد الله بن محمد ابن فاطمة، ويضيف ابن عذارى إلى ذلك أنها كُتبت في سنة ٥١٠

(٢) في القلائد والبيان: يسرنا.

إمامك، وأجْرِ عليه في القوي والضعيف أحكامك، وارفع لدعوة المظلوم حجابك، ولا تسُدَّ في وجه المضطهد المهضوم بابك، ووَطِّئ للرعية - حاطها الله - أكنافك، وابذل لها إنصافك، واستعمل عليها من يرفق بها، ويعدل فيها، واطَّرِح كل من يحيف عليها ويؤذيها، ومن سبب عليها من عمالك زيادة، أو خرق في أمرها عادة، أو غيَّر رسمًا، أو بدَّل حكمًا، أو أخذ لنفسه درهمًا ظلمًا، فاعزله عن عمله، وعاقبه في بدنه، وألزمه ردَّ ما أخذ [متعديًا إلى أهله، واجعله نكالاً لغيره، حتى لا يقدم[1] منهم أحد] على مثل فعله إن شاء الله تعالى، وهو وليُّ تسديدك، والمليّ بعضدك وتأييدك، لا إله غيره، ولا خير إلا خيره.

١٦ - وكتب موصيًا[2]:

كتابنا عصمكم الله بتقواه، ويسَّركم لما يرضاه، وجنَّبكم ما يسخطه وينعاه، من حضرة مراكش حرسها الله، قد اتصل بنا أنكم من مطالبة فلان على أولكم، وفي عنفوان عملكم، وأنه لا يعدم تشغيبًا وتأليبًا من قبلكم، فإلى متى تلحون في الطلب، وتجدّون في الغلْب وتقرعون (٨٤ب) النبع بالغرب؟ لقد آن لحركتكم فيه أن تهدأ، وللنائرة بينكم أن تطفأ[3]، ولذات بينكم أن تنصلح[4]، ولوجوه المراشد بينكم أن تتضح، فإذا وصل إليكم خطابنا هذا فاتركوا سابقة[5] الهوى، واسلكوا معه الطريقة المثلى، ودعوا التنافس على حطام الدنيا، وليقبل كل واحد منكم على ما يعنيه، ولا يشتغل بما ينصبه ويُعَنِّيه، ولا

---

(١) سقطت هذه الكلمات من الأصل، واستكملناها عن القلائد والبيان.

(٢) أورد ابن خاقان هذه الرسالة في (القلائد) (ص١١٣-١١٤) ونص على أنها وُجِّهت عن علي ابن يوسف إلى أهل غرناطة في يوم الجمعة التاسع عشر من شهر الصوم المعظم سنة ٥٠٧.

(٣) في القلائد: لجمرتكم فيه أن تطفأ، وللنائرة بينكم أن تهدأ.

(٤) في الأصل: تصلح، وقد أثبتنا ما جاء في القلائد.

(٥) في القلائد: متابعة.

بد لكل عمل من أجل، ولكل ولاية من غاية، ولن يسبق شيء أناه، وإذا أراد الله أمرًا سنَّاه، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦][١]، وفقكم الله لما فيه صون أديانكم وأعراضكم وسدد[٢] جميع أنحائكم وأغراضكم بمنّه، والسلام.

١٧ - *وكتب بولاية ميورقة:*

كتابنا أبقاك الله، وأعزك بتقواه، وأناف بك على ما تتمناه، من حضرة مراكش - حرسها الله - لتسع بقين من ربيع الأول سنة عشر وخمسمائة عندما ورد علينا الخبر اليقين بموت أبي السداد رحمه الله، ورأينا - والله الموفق للصواب - أن نولّيك جميع ما كان يتولاه، على أنا ما كنا أقررناه بميورقة - حرسها الله - إلا إقرار منعة، وفي سبيل قلعة، وغرضنا كان أن نولي عليها من يصلح من أعيان الرجال، فإنها بلدة كبيرة تحتاج إلى من يسوق أمرها، ويحوط أهلها، فتولَّ ما وليناك منها ومن جميع ما كان تحت يد المذكور مضافًا إليها بصدر منشرح، وأمل منفسح، واستشعر تقوى الله سرَّك وجهرك، واجعلها عماد أمرك، فعليها مدار الأعمال، وبها صلاح الأحوال، وحَسِّنْ في أهل تلك الجزائر - جبرهم الله - سيرتك، وأخلص في النصح لهم والرفق بهم سريرتك، وأكّد في إيثار (٨٥ أ) العدل فيهم وسلوك طريق الحق بهم بصيرتك، وسَكِّنْ بلين الكلمة وحسن النصفة أحوالهم، وارفع بحزمك وعزمك في ضبط البلد أوجالهم، واسْعَ بحسن سياستك في استرجاع من خرج من جيرانهم، واجتهد في صرفهم إلى أوطانهم، حتى يكثر بفضل الله عددهم، وينجبر بلدهم، وانظروا في أمر الأسطول والمستخلص بدانية حرسها الله، واستَنِبْ في ذلك من ترضاه، وإذا وصل إليك خطابنا هذا فلا تتوقف عن النفوذ نحوهم

---

(١) سورة البقرة، آية ٢١٦.

(٢) في القلائد: وتسديد.

واللحاق بهم، فإنهم مستوحشون بانفرادهم، ثم لا سيما بما أحدثه السفيه المعتوه ابن أبي السداد من إيحاشهم وترويعهم، وبوصولك إليهم يستقيم أمرهم، ويذهب ذعرهم، إن شاء الله تعالى، والسلام.

١٨ - وكتب أيضًا:

كتابنا أبقاكم الله وعصمكم بتقواه، ووفقكم في أقوالكم وأعمالكم لما يرضاه، من فلانة عندما وصلت إلينا مراجعتكم عما كنا خاطبناكم فيه من اختيار رجل منكم يصلح لولاية القضاء عندكم، ووقفنا منها على اختلافكم في الرجلين المذكورين في العقدين الواصلين من قبلكم، فرأينا التوقف في الأمر حتى يقع اتفاقكم، وينعقد في الاختيار إجماعكم وإصفاقكم، فإذا وصل إليكم خطابنا هذا فاتفقوا على واحد ترضونه غير متنازعين فيه، وخاطبونا باتفاقكم لنلقى الأمر بعد استخارة الله تعالى، وإن استمر بكم الخلاف أخرجنا الأمر عنكم، واجتهدنا في الاختيار لكم إن شاء الله تعالى، والسلام.

١٩ - وكتب أبو بكر ابن القبطرنه يحض على قتل الجراد:

كتابنا إليكم وفقكم الله من كذا، وقد علمتم أن الجراد داء عضال، وإن كان [١] - كما قالوا - من البحر نثرة [٢]، فإنما هو جمرة، تحرق البلاد، وتجمع [٣] البلاد وشأنها الفساد، دعت اللهَ صارة [٤] أن يطعمها لحمًا لادم (٨٥ب) فيه فأطعمها الجراد، فقالت: اللهم أعشه بغير رضاع، وتابع بينه بغير

(١) في الأصل: كانوا.

(٢) إشارة إلى حديث يُنسب إلى رسول الله ﷺ: (إن الجراد نثرة الحوت في البحر) (انظر سنن ابن ماجه ٢٩٣/٢).

(٣) كذا في الأصل: ولعل صحتها (وتجيع).

(٤) هذه القصة التي يرويها الكاتب هنا عن صارة - ولعله يعني بها سارة زوجة رسول الله إبراهيم عليه السلام - تُروى في أكثر المراجع عن مريم بنت عمران عليهما السلام، إذ يقال إنها هي التي نطقت بهذه العبارة، وقد ساقها الدميري نقلاً عن البيهقي عن أبي أمامة الباهلي مسندًا إلى النبي ﷺ ذلك الحديث (انظر حياة الحيوان الكبرى ٣٣٧/١).

شياع[١]، فهي كذلك تثبت بالروضة فوق اليفاع، ذبابها هزج يسُنُّ ذراعًا بذراع[٢]، قد نادمت الذراع[٣]، ورقمتها كفّ الثُّريا الصَّناع، فهي ترقرق عليها للحَوذان لُعَاع[٤]، فيتركها مُسْوَدَّةَ البقاع، كأنما جرت عليها التي جعلها الله تذكرة وللمقوين متاع[٥]، وينزل بالوادي قد امتلأ عُشْبًا، وطلعت أزهاره شهبًا، قد وشاه الربيع ودبج، وخالط الخزامى فيه العرفج، وجاده المِرْزَمُ والسِّماك جَوْدًا، فيتركه حَرَّةً سَوْدَا، لا يجد فيها الضبُّ عَرَادَا[٦]، ولا النِّيبُ[٧] أراكًا ولا

(١) في الأصل: وتابع دينه، وقد صححناها عن كتب الحديث واللغة، أما الشياع فقد فسّره الدميري في الموضع الذي سلف ذكره بأنه الصوت، وقال صاحب لسان العرب إن الشياع هو الدعاء بالإبل لكي تنساق وتجتمع كما يشايع الراعي بإبله لتجتمع ولا تتفرق عليه، فكأنه شُبّه بهذا الصوت.

(٢) حل الكاتب في هذه الجملة قسيم البيت المعروف لعنترة بن شداد العبسي (ديوان عنترة ص١٤٥):

هزجًا يسنّ ذراعه بذراعه قدح المكبّ على الزناد الأجذم

(٣) الذراع نجم من نجوم الجوزاء على شكل الذراع، وقيل يسمّى ذراع الأسد وهما كوكبان نيّران من منازل القمر.

(٤) الحوذان نبات له زهرة حمراء في أصلها صفرة، واللعاع كل نبت لين فيه ماء كثير لزج، ونرى الكاتب هنا يشير إلى بيت ابن مقبل:

كاد اللعاع من الحوذان يسحطها ب إلخ (انظر لسان العرب تحت مادة لعاع)

(٥) يريد بذلك كأنما أتت عليها النار، وهو يشير إلى الآيات القرآنية الكريمة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:٧١-٧٣]، ومعنى الآيات أن الله سبحانه وتعالى خلق النار تذكرة للنار الكبرى نار جهنم ليتعظ بها المؤمنون، ومتاعًا أي منفعة للمقوين أي المسافرين، إذ أن المقوى هنا هو نازل القواء أي البلد القفر ؛ هذا ونلاحظ أن التزام السجع قد اضطر الكاتب إلى تغيير ضبط كلمة (متاع) الأخيرة إذ كان ينبغي أن تكون (متاعًا).

(٦) العراد شجرة من شجر البادية صلبة العود منتشرة الأغصان، وهي شجرة يألفها الضّبُّ، ويقصد: أصبحت الأرض مقفرة لا يكاد الضّبُّ يجد فيها نبتًا يصلح له.

(٧) في الأصل: الينب، والنيب جمع ناب وهي الناقة المسنّة، والأراك والقتاد مما ترعاه الإبل.

قتادًا، ولا تطعم فيه الحُبَارَى راء[١]، ولا الظليم تَنُّومًا وآءً[٢]، ولا يَسْتَحْلِسُ فيها سَعْدَانة[٣]، ولا يجد بعير صِلِّيانة[٤]، فراشة محقورة، تجتمش النجم اجتماش النُّورة[٥]، وقد نزل منه رِجْلٌ[٦] بموضع كذا، فإن تركتموه أرداكم، فتعشوه قبل أن يتغداكم، وانفروا إليه وبالله العون، واعلموا أنه أعظم ما أنزل من العذاب على آل فرعون، حتى خرقت ثيابهم، وأكلت مساميرهم وأبوابهم، فأخرجوا إليه الجمَّ[٧] الغفير، ولا يتخلف الكبير منهم ولا الصغير؛ ولا يأوِ[٨] أحد منكم فِرَاشه، حتى تحرقوا فَرَاشه، وتبيدوا[٩] آثاره، ولا تكونوا كأبي حِسْل[١٠] الذي أجاره، فإن فعلتم غمر الغامر[١١]، وكنتم كمجير أمّ عامر[١٢]، فجدوا في إطفاء هذا الجمر، ولا تتهاونوا بهذه الصفر، التي تُكنى أم عمرو، والسلام.

٢٠ - وكتب الفتح بن خاقان:

أطال الله بقاء الفقيه الأجل القاضي الأعدل قاضي القضاة للملة يبدي أعلامها، ويبرئ آلامها، قد أظهر الإسلام- أدام الله توفيقك - بك استبشارًا،

---

(١) الراء شجيرة جبلية، والحبارى ضرب من الطير، وإنما أشار إليها الكاتب لأنها أبعد الطير نجعة.

(٢) في الأصل: ب وراء، ولعل الصواب ما أثبتنا، والظليم ذكر النعام، والتنوم والآء شجر من مراتع النعام، وفي هذه العبارة إشارة إلى بيت زهير بن أبي سلمى في وصف الظليم:

أصك مصلم الأذنين أجنى له بالسى تنسوم وآء

(انظر ديوان زهير بشرح ثعلب الشيباني ص ٦٤)

(٣) يستحلس لعله يعني بها يتحلس، ويقال تحلس الشيء أي أصاب منه، والسعدان نبت ذو شوك يعُتبر من أطيب مراعي الإبل.

(٤) الصليان نبت ترعاه الإبل، والعرب تسميه خبزة الإبل.

(٥) النورة الشعر، وتجتمش مشتقة من جمش الشعر أي حلقه أو إحراقه.

(٦) الرجل من الجراد الجماعة الكثيرة.

(٧) في الأصل: الجما.

(٨) في الأصل: ويأوى.

(٩) في الأصل: وشيدوا، ولعل الصواب ما أثبتنا.

(١٠) أبو حسل كنية الضب.

(١١) الغامر هو الحراب.

(١٢) أم عامر كناية عن الضّبّ، وإجارة أمّ عامر كناية عن مسدي المعروف إلى غير أهله.

واستشعر بعثًا وانتشارًا، ورجا العدل نظم متناثره، وإقالة عاثره، وأطفأ ارتقابك جمر الباطل وأخمده، وألبسه كآبته وكمده، ولا شك (٨٦ أ) أنك تصرح الشوائب، وترفع هذه النوائب، وتسرع اللحاق، وتطلع الحق كاملاً بعد المحاق، فأنت - والله يعضدك - الذي أحييت الدين بعد مماته، وشفيته من ملماته، وطلعت هاتكًا لظلماته، حتى غدا متهلل الجبين، وبدا كالصبح المبين، أيام توليتك تلك الأقطار، وأهديت إليها نفس عهدك المعطار، وهذا ميدان اجتهادك، ومكان حجتك وجهادك، والشر قد تشعَّبت طرقه، والدين قد عظم غَصَصه بالباطل وشَرَقه، والراح قد إِسْتُحِلَّ حرامها، وَاسْتُسْهِلَ مرامها، وغدت في كل منزل قوتًا، وبدت كئوسها دُرًّا يحمل ياقوتًا، مع انتحاء أهل الذمة وانتزائهم، وذلك أعظم مصائب المسلمين وأرزائهم، وإذا كفيت قبيح هذا ومحله، فقد بلغ هديك محِلّه، ورميت الجمرة، وأتممت الحجَّ والعمرة، وشفيت الملة من إشفائها، وأوضحت آثارها بعد عفائها، وقد نهض فلان الطالع عليك من ربى الصدق وثنيَّاته، الصادع لك بالحق وآياته، الذي لا تلهيه الأعراس والولائم، ولا يزدهيه العيش الملائم، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وهو يورد عليك ما ينبذ به الكسل، وتُشْحَذ به الصوارم والأسل، وفي الحضرة أعيان يصلون يدك بأيديهم، ويستأصلون لك شأفة معتديهم، ولن تعدم منهم عونًا يرضيك، وعضدًا يشيمك في ذات الله ويقتضيك، إن شاء الله، والسلام.

٢١ - وكتب غيره:

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم، ووقاكم المحاذير وعصمكم، ووصل بموفور مزيده آلاءكم وقسمكم، من حضرة غرناطة حرسها الله (٨٦ب) عن أنفس مملوءة ثَلَجًا، وأنباء سارة الأرض أرجًا، ولم تدع في قناة الدين أمتًا ولا عِوَجًا، لله على ذلك من المحامد أعمّها، وهو وليّ منحه الحافلة يكملها ويتمّها، وشرح ذلك مضم نسخة اندرجت طيه منقولة من كتاب أبي عبد الله محمد بن

يسير [١] أعزه الله وأكرمه بتقواه وازنته وصفًا، وقابلته حرفًا حرفًا، أبدى فيه عن صفة الصنع الجميل الجسيم. والفتح الوسيم، الذي منحه الله في الكافرين أعدائه، المكذبين رسله الملحدين في أسمائه، وقد طيّرنا بها مسرعين، وتقدمنا بها إلى أسماعكم ممتعين: لتتحققوها جلاء، وتتدافعوا المسرة بها ولاء، وتحمدوا الله على هذه المنحة الواقعة، والبشرى الناجمة الطالعة، التي ملأت العيون قرة، وطلعت في جبين الدهر غرة، وبعثت للدين وأهله جذلاً، وأوضحت من المسرات فصولاً وجملاً، ولتأخذوا من ذلك بأوفر نصيب، وترتعوا منه في جناب مريع ومرعى خصيب، فأنتم الأولياء والأشياع، ولكم الانجذاب المحقق والنزاع، فإذا طلع بحول الله عليكم، ومدت هذه المسرة خطوها إليكم، أعلن بقراءته في المسجد الجامع، حيث يكون مطمح الأبصار ومصغى المسامع، حتى يستوي في اجتلائه الأبعد والأدنى، وتتلاحق الأفراح فيه من هنا ومن هنا، وإنه لكما ترون من أحسن ما تطالع به النفوس وتهنا، وارتقبوا أمثالها مع الأنى، وعلى التتابع والولا، وارفعوا أيديكم إلى بارئكم جلَّ ثناؤه، وتقدست أسماؤه، في أن يجعلها نسقًا، ويذر الشرك وأهله لقى، ويوطئهم من آرائهم الوخيمة صعيدًا زلقًا، (٨٧أ) فهو وليّ ذلك يصحبه القبول، والصنع الجميل والفتح الموصول، بعزته لا ربٌّ غيره ولا معبود حاشاه، والسلام.

٢٢ - *وكتب أبو حفص بن برد في الاصطلاح بين قبيلتين* [٢]:

أما بعد، فإن أفضل ما تناجى به المسلمون ووجَّهوا أبصارهم إليه، وصحَّحوا نياتهم فيه، ولم يلوهم لاوٍ عنه، ولا لفتهم لافت دونه، وما قرَّب من رضا الله تعالى وبَعَّد من سخطه، وعمل فيه بأمره، واحصنت له [٣] خلافة رسوله

---

(١) لم أهتد إلى التحقيق من شخصية ابن يسير هنا.
(٢) جاء بعض هذه الرسالة في الذخيرة لابن بسام، ق ١-٢/٢٩-٣٠.
(٣) في الذخيرة: واحتسب فيه.

عليه السلام في أمته من الإصلاح بين المتحاربين منهم والمتحارسين [١] فيهم وتحذيرهم ما في سفك الدماء وتأريث [٢] الشجناء وتوكيد مِرَرِ الحُقود [٣] وإيقاظ عيون الحروب من فساد الدين، ووهن [٤] اليقين، وذهاب الرجال، ونفاد الأموال، واجتياح النعم، واستنزال النقم، قال الله عز وجل ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء :١١٤] [٥] وقال تقدس اسمه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات :٩] [٦]، وقد علمتم أن الحرب مثكلة [٧] النفوس، متلفة الأموال، مندمة في العواقب والمآل [٨]، تلذ مباديها للأشرار، وتلقي كلاكل عواقبها [٩] على الأخيار، وقلما تقدح شعلها ويغلى مرجلها إلا فراش الشر وذؤبان الطمع [١٠]، ممن لا يحفل بعار، ولا يستحيي من فرار، فإن هلك لم يفقد، وإن نجا لم يحمد، ثم ترتكس [١١] جماهير الناس وأولو الذكر [والأعاظم أخطارًا، والأحاسن آثارًا] [١٢]، في لجج تبعد عنها السواحل، ويبوءون بفوادح تنهدّ عنها الكواهل، وأصحُّ الناس لبًّا وأنفذهم نظرًا وخيرهم احتسابًا وأعلمهم بما حاز رضا الله

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها (والمتحارشين) مشتقة من الحرش وهي تعني إغراء الناس بعضهم ببعض والافساد بينهم، ولم ترد هذه الكلمة ولا التي تليها في الذخيرة.
(٢) في الأصل: وتأثير، وقد اخترنا ما جاء في الذخيرة.
(٣) في الأصل: العقود، وقد آثرنا ما جاء في الذخيرة.
(٤) في الأصل: وهوى، والتصحيح عن الذخيرة.
(٥) سورة النساء، آية ١١٤.
(٦) سورة الحجرات، آية ٩.
(٧) في الأصل: مشكلة، والتصويب عن الذخيرة.
(٨) في الذخيرة: مجلبة للندامة في العواقب.
(٩) في الذخيرة: عاقبتها.
(١٠) في الأصل: وتبقى مرحلها فراش الشر وديوان الطمع، وقد آثرنا ما جاء في الذخيرة.
(١١) في الأصل: ترتكش، وفي الذخيرة: تركص، وما أثبتناه أقرب إلى الصحة، والارتكاس في الفتنة هو التقلب والتخبط فيها.
(١٢) ما بين الحاصرتين زيادة جاءت في الذخيرة.

وأحاط نفسه والمسلمين فيه مَنْ حضّ [١] على الصلح، وندب إلى أُسى [٢] الجرح، ولم يألُ (٨٧ب) إرشادًا وتبصيرًا، ومن سوء العواقب تخويفًا وتحذيرًا، ويادر نار الفتنه بالإطفاء، وعصب المتحاربين بالإرضاء [٣]، وشوكة الحرب بالخضد، فحقن الدم، وحمى الحرم، وأوطأ [٤] النعم، وأمَّن الستور من الانحسار، وضمائرها من الإجهار، ولا توفيق إلا بالله العليّ العظيم، والسلام.

* * *

(١) في الأصل: حط. (٢) في الذخيرة: إبراء.
(٣) في الأصل: ب. بالإضاء، وفي الذخيرة: وعصب المتحازبين بالإرخاء.
(٤) في الذخيرة: وأوطن.

مراجع البحث

المراجع العربية:

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي)

التكملة لكتاب الصلة (المجلدان الخامس والسادس من المكتبة الأندلسية)، نشر فرانسسكو كوديرا، مدريد ١٨٨٧ -١٨٨٩ .

المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي عليّ الصدفي (المجلد الرابع من المكتبة الأندلسية)، نشر فرانسسكو كوديرا، مدريد . ١٨٨٥

الحلة السيراء، نشر رينهارت دوزي تحت عنوان:
Notices sur quelques manuscrits arabes, ed. Leyden, 1847-1851.

ابن أبي زرع (أبو عبد الله محمد بن عبد الحليم)

الأندلس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط. الرباط سنة ١٩٣٦ في ثلاثة أجزاء.

ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم):

الكامل في التاريخ، ط. القاهرة سنة ١٣٤٨-١٣٥٣ (١٩٢٩-١٩٣٤).

ابن بسام (علي بن بسام الشنتريني):

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة:

القسم الأول في مجلدين، ط. كلية الآداب بجامعة القاهرة، سنة ١٩٣٩-١٩٤٢.

القسم الثاني (نسخة مصورة من مخطوطة بغداد).

القسم الثالث (مخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمدريد - مجموعة المستشرق باسكوال دي جايانجوس رقم ١٢)

ابن بشكوال (أبو خلف بن أحمد بن عبد الملك):

الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم وفقهائهم ومحدثيهم، نشر فرانسسكو كوديرا، ط. مدريد سنة ١٨٨٢.

البيذق (أبو بكر الصنهاجي):

كتاب أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين، نشر ليفي بروفنسال، ط. باريس سنة ١٩٢٨، مع ترجمة فرنسية ومقدمة تحت عنوان:

Documents inedits d'bistoire almobade

ثعلب الشيباني (أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد):

شرح ديوان زهير بن أبي سلمي، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤٤.

الحلل الموشية في الأخبار المراكشية:

لمؤلف مجهول، نشر الأستاذ أحمد علوش، ط. الرباط ١٩٣٦ (وانظر كذلك أويثي).

الحميدي (أبو عبد الله محمد بن فتوح):

جذوة المقتبس، نشر الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، ط. القاهرة سنة ١٩٥٢.

الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم):

صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار) نشر الأستاذ ليفي بروفنسال، ط. القاهرة سنة ١٩٣٧ مع مقدمة وترجمة فرنسية تحت عنوان:

La Peninsule Iberique au moyen-age d' apres le Kitab ar-Rawd al-Mitar, ed. Leiden,1838..

ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني)

الإحاطة في أخبار غرناطة:

نشر محب الدين الخطيب في جزأين، القاهرة سنة ١٣١٩.

نشر الأستاذ محمد عبد الله عنان، القاهرة سنة ١٩٥٥.

مخطوطة الأسكوريال، رقم ١٦٧٣.
أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، نشر الأستاذ ليفي بروفنسال، ط. بيروت سنة ١٩٥٦.
ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد):
العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط. القاهرة في سبعة أجزاء، سنة ١٢٨٤هـ. (١٨٦٧م).
ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن إبراهيم):
وفيات الأعيان، نشر الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد (في ستة أجزاء)، ط. القاهرة سنة ١٩٤٨.
ابن خير (أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي):
فهرسة ما رواه عن شيوخه (المجلدان التاسع والعاشر من المكتبة الأندلسية)، نشر الأستاذين فرانسسكو كوديرا وخوليان ربيرا، ط. مدريد ١٨٩٣-١٨٩٥.
ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن الحسن الكلبي):
المطرب من أشعار أهل المغرب، نشر الأساتذة إبرهيم الإبياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد بدوي، ط. القاهرة سنة ١٩٥٤.
الدميري: (كمال الدين):
حياة الحيوان الكبرى، جزءان، ط. القاهرة سنة ١٣٣٠هـ.
ابن سعيد المغربي (علي بن موسى بن عبد الملك):
المغرب في حلى المغرب، نشر الدكتور شوقي ضيف، ط. القاهرة في جزأين، سنة ١٩٥٢-١٩٥٥.
رايات المبرزين وغاية المميزين، نشر الأستاذ إميليو غرسيه غومز مع مقدمة وترجمة إسبانية، ط. مدريد سنة ١٩٤٢ تحت عنوان:
(El libro de las banderas de los campeones)

السلاوي (أحمد بن خالد الناصري):
الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، ط. الدار البيضاء سنة ١٩٥٤-١٩٥٦ في عشرة أجزاء.
الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة):
بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، المجلد الثالث من المكتبة الأندلسية، نشر الأستاذ فرانسسكو كوديرا، مدريد سنة ١٨٨٤-١٨٨٥.
عبد الواحد المراكشي:
المعجب في تلخيص أخبار المغرب، نشر الأستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العلمى، ط. القاهرة سنة ١٩٤٦.
ابن عذارى المراكشى:
البيان المغرب في أخبار المغرب، الجزء الثالث (الخاص بملوك الطوائف في الأندلس)، نشر الأستاذ ليفي بروفنسال، باريس سنة ١٩٣٠.
البيان المغرب (الجزء الرابع الخامس بدولة المرابطين. مخطوطة الأستاذ أمبروسيو أويثي).
ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي):
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط. القاهرة (مكتبة القدسي)، سنة ١٣٥٠هـ.
عنترة بن شداد العبسي:
شرح ديوان عنترة، بتحقيق الأستاذ عبد المنعم عبد الرءوف شلبي، ط. المكتبة التجارية بالقاهرة، بدون تاريخ.
الفتح بن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي):
قلائد العقيان، ط. القاهرة سنة ١٢٨٣(١٨٦٦).
مطمح الأنفس، ط. القاهرة سنة ١٣٢٥(١٩٠٧).
ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد):

الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ط. القاهرة سنة ١٣٥١ (١٩٣٢).

ابن القاضي (أحمد بن محمد بن أبي العافية):

جذوة الاقتباس فيمن حلَّ من الأعلام مدينة فاس، طبعة حجرية بمدينة فاس سنة ١٣٠٩هـ.

ابن القطان:

نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، المجلد الثالث عشر منه، نسخة خطية كانت لدى الأستاذ ليفي بروفنسال.

القلقشندي: (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله):

صبح الأعشى في كتابة الإنشا، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٩٢٢.

ابن الكردبوس:

كتاب الاكتفا في أخبار الخلفا (مقتطفات منه مترجمة إلى الإنجليزية بقلم الأستاذ باسكوال دي جايانجوس Pascual de Gayangos تحت عنوان

Extracts from tbe bistorical work entitled Kbolafa
-l-iktifa Akbbari- l- Kbolafa

وقد جعل جايانجوس هذه الترجمة من ملحقات ترجمته الإنجليزية لكتاب نفح الطيب للمقري:

Tbe History of tbe Mobammedan Dynasties in Spain, vol. II, London, 1843, Appendix C.

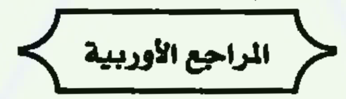
ابن ماجه (أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني):

سنن المصطفى، في جزأين، ط. القاهرة سنة ١٣٤٩هـ.

المقري (أحمد بن محمد التلمساني):

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، في عشرة أجزاء، نشر الشيخ محمد

محيي الدين عبد الحميد، ط. القاهرة سنة ١٩٤٩.
النباهى (أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي المالقي):
تاريخ قضاة الأندلس المسمَّى بـ (كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، نشر الأستاذ ليفي بروفنسال، القاهرة سنة ١٩٤٩.
نبذ تاريخية جامعة في أخبار البربر في القرون الوسطى:
منتخبة من المجموع المسمَّى بكتاب مفاخر البربر، لمؤرخ مجهول، نشر الأستاذ ليفي بروفنسال، ط. الرباط سنة ١٩٣٤.
ياقوت الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله):
معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) نشر الدكتور أحمد فريد رفاعي، ط. القاهرة في عشرين جزءاً، سنة ١٩٢٢ -١٩٣٨



Bosch Vila, Jacinto , Los Almorauides, ed. Instituto General Franco de Estudios e Investigacion - Arabe, Tetuan, Hispano.
Brockelmann, Carl. Gescbicbte der Arabiscben literatur. Layden.1943.
Campaner y Fuertes, Alvaro. Bosquejo bistorico de la dominacion islamita en Las lslas Balea- res Palma de Mallorca.1888.
Codera, Francisco. Decadencia y desaparicion de Los almorauides, vol. III de la Coleccion de Estudios Criticos de Historia Arade Espanola, Zaragoza, 1899.
Familia real de los Benitexufin, en el vol. IX de la Coleccion de Estudios Criticos de Historia Arabe Espanola, paginas. 75-175, Madrid, 1917.
Dozy, Reinhardt. Scriptorum arabum Loci de Abbadidis, Leyden, 1846-181853.

Recbercbes sur I'bistoire et la litterature de I' Espagne pendant le moyen age, ed Leyden, 1881.
Supplement aux dictionnaires arabes, paris- Leyden, 1927.
Garcia Gomez, Emilio، un eclipse de La poesia en Sevilla. la epoca almorauide, Madrid 1945.
Huici miranda, Ambrosio، Historia politica del imperio almobade, vol.I,ed, Tetuan 1956.
Las grandes batallas de la Reconquista durants Las incasiones africanas, Madrid, 1956.
(Al-Hutal al-mawisyya), eronica arabe de las dinastias almoravi-de, almohade y benimerin, traduccion espanola, Tetuan 1951.
Levi-provencal, E.. Histoire de I'Espagme Musulmane, vol. IIIe, paris,1953.
Nykl, A. R.. Hispano-Arabic Poetry , Baltimore, 1946.
Pons Boigues, Francisco، Ensayo bio- bibliografco sobre los bistoriadores y geografos arabigo- espanoles, Madrid, 1898..
Prieto y Vives, Antonio، Los reyes de taifas, Madrid, 1926.
Simonet, Francisco Javier، Glosario de ooces ibericas y latinas usadas entre los mozarabes, Madrid, 1888.
De Slane, M. G.. Histoire des Berberes, ed. Paul Casanova, paris,1925-1934, 3 vols.


الفهرس



الفهرس